وهكذا أصبحً
جاسوساً !!

وليد الهودلي

وهكذا أصبح جاسوساً !!

وهكذا اصبح جاسوسا!! – رواية

* وليد ابراهيم الهودلي

* الطبعة الاولى : 2018

* جميع الحقوق محفوظة .

مركز بيت المقدس للادب - هاتف : 2416120

adbmqds2013@gmail.com

walidhudali@gmail.com

فيسبوك : مركز بيت المقدس للأدب

جميع حقوق الطبع محفوظة ، لا يسمح باعادة اصدار هذا الكتاب او تخزينه في نطاق استعادة المعلومات او نقله او استنساخه باي شكل من الاشكال من دون اذن خطي مسبق من الناشر.

الاهداء

الى أخي فؤاد

وابنتي عائشة

شكر خاص على النقد والتصويب

د. أحمد رفيق عوض

أ. فرج عبد الحسيب

أ. صابر زيادة

أ. عبد المجيد حامد

أ. عطاف عليان

ليس من الضروري أن
تكون عميلا لتخدم عدوك
يكفيك أن تكون غبياً
محمد الغزالي
عالم ومفكر إسلامي
مصري.
(١٩١٧-١٩٩٦)

وهكذا أصبح جاسوساً !!

قضَّت مضجعي صرخة نشاز هتكت سدول الليل في غرفتي، كان لها صرير سيف صَدِئ، اخترقت حاجز الصوت في رأسي الهاجع في أمان، زلزلت أركاني، فتحت عينيَّ النَّاعستين فوجدت جنوداً مدججين بالسلاح ينتشرون في منزلي، لاحت نظرة خاطفة إلى الساعة، فإذا هي الثالثة فجراً.

سحبوني بملابس النوم، وحشروني في زاوية الغرفة، وفوق رأسي احتشدت فوهات بنادق كثيرة، وكأنها عيون ذئاب ضالة تتربص بي، عرفت أن جولة جديدة ستبدأ الآن مع الاحتلال وجنوده وسجونه.

سلخوني عن بيتي بعد أن عاثوا به فساداً، رموا بي في قاع ناقلة حديدية صماء، وانطلق موكبهم الجنائزي إلى حيث السجن والاعتقال من جديد، رحلة سئمتها وسئمتني حيث توالت عليّ اعتقالاتهم وطالتني مرات عديدة، ماذا يريدون مني اليوم؟

اعتقالاً مع تحقيق؟ أم إداريّاً قد يطول أو يقصر!!

ذاهبون بك إلى غد مجهول الهوية والعنوان. تسير القافلة وأسير بأفكاري في البرزخ الذي يفصل الحرية عن السجن، تتباعد الحرية ويقترب السجن، وما أدراك ما السجن، خاصة بعد أن تتنفس شبيه الحرية سنوات!! بالفعل لم أُلامس الحرية وإنما شيئاً يشبه الحرية في هذه الديار العامرة بكل أشكال الاحتلال الذي خرج من الباب وعاد من كل النوافذ، شعرت بمرارة الشوق لمن سأبتعد عنهم طويلاً، كنت كمن يغرق في جُبِّ يوسف، ولكن دون أن يكون هناك سيارة يرسلون واردهم إلى غيابتها. هكذا فجأة تتلاشى من روحك المتعبة الدنيا وكل ما فيها ويسيرون بك للمجهول.

من منحهم هذا الحق في مصادرة حريتي؟ كيف يجيزون لأنفسهم مصادرة كل أسباب الحياة؟

توقف الموكب الجنائزي بعد مسيرة ساعة، دارت فيها كل ساعات حياتي في رأسي، أنزلوا البضاعة الكريهة! ورموا بها على بوابة سجن عوفر القريب من بلدة بيتونيا. هذا السجن سكني المزيف المُقْبِل يبعد عن سكني الطبيعي مسيرة خمس دقائق بالسيارة.

قابلني هناك ضابط محنك! يحمل وجهه ملامح مختلطة من الشرق والغرب، قمحي الوجه بسمرة شرقية مع عينين خضراوتين ذات حركة وحيوية غربية، وعلى محياه ابتسامة ساخرة وشامتة تقتر حقداً ومقتاً... ترنَّم بهدوء مصطنع:

.أنت اليوم معتقل إداريًّاً..

كلمة تعني لي الكثير من الحقد والكراهية، وكأنهم أصابوني بقذيفة مدفع، سألت مستغرباً:

. والسبب؟

. إذا أحببت أن نكون أصدقاء أكشف لك السبب؟

. ماذا يعني بقولك: أن نكون أصدقاء؟

. أنت تعرف تماماً؟

. يعني جاسوساً لك؟

. ليس بهذا المعنى ولكن تساعدني وأساعدك؟

قررت استفزازه علّني أعرف السبب:

. اسمع، هذه مقايضة رخيصة دعك منها، هذه عنصرية بغيضة وسادية مفرطة، تنزعني من حياتي بكل هذه الوحشية دون أي سبب؟

احمرَّ وجهه، رد ممتعضاً، وقال:

. اسأل نفسك تعرف، مثلاً: كتاباتك كلها تحريضية .

. إذا هو اعتقال ثقافي؟؟

. لسنا ضد الثقافة، ولكن ثقافتك تشكل خطراً علينا.. أنا مضطر للمغادرة الآن، إذا لان رأسك وغيرت رأيك فأنا تحت أمرك.

اكتفيت بالرد عليه بنظرات اشمئزاز، وهو ينسحب كمن يولي هارباً من رائحة كريهة.

رفضت إدارة سجن عوفر استضافتي عندهم وكذلك سجن النقب الصحراوي لاعتبارات غريبة، وحملوني إلى الشمال الفلسطيني الجميل حيث يقبع سجن مجدو سيئ الصيت، على باب سجن مجدو وقفت العروسة بعد مسيرة أربع ساعات متواصلة، وهذا أرحم بكثير من التوقف لأنّ رحلتها حينئذ ستستغرق يومين كاملين ، على بوابة السجن بعد إجراءات التفتيش العاري المهين قابلني ضابط استخبارات السجن، مكتنز الوجه والخدين كأنه جاء من مزارع تسمين، أبيض طويل القامة، يجيد رسم ابتسامة غير معروفة الهوية، مركب عجيب درزي عربي على صهيوني إسرائيلي، ممسوخ العجينة، كل شيء فيه مزيف في الظاهر وفاضح يكشف باطنه الملوث بالخيانة والحقد.

صاح مُرَحِّبَاً:

أهلاً وسهلاً بك في "سجن مجدو".

قالها وكأنه يستقبلني في أفخم الفنادق أو دور الضيافة، أهلا بك، أثارت بي حميّة المواجهة لأكشف عن وجهه القبيح، ولكنه تابع:

. تعرف خلال اثنتين وسبعين ساعة تُعرض على المحكمة لتثبيت الإداري.

. قصدك المهزلة!

. بدأت تلعب بالنار، هنا سجن مجدو لا مجال للعب بالنار.

. وهل تُسمي المحكمة التي تنقاد خلف المخابرات فتثبت حكماً دون أدلة بالمحكمة؟

. اسمع، هنا الفلسفة ممنوعة، رفضوا استقبالك في عوفر والنقب، نحن وافقنا على استقبالك عندنا.

. شكرا لك على كرم الضيافة!

. عفواً لك، انتبه جيداً، أُحذرك من أن تقوم بأي نشاط ثقافي في هذا السجن.

. هذه ديمقراطيتكم؟ قلتها بتهكم واشمئزاز.

. ديمقراطيتنا لنا وليست لكم، أنت تعرف هذا الأمر تماماً.

. بكل تأكيد أعرف عنصريتكم تماماً.

دخلت إلى السجن لأحظى بحفاوة بالغة تغسل عني وعثاء سفري المضني، وجدت نفسي في حضن دافئ بين أسرى جمعتني بهم السجون فيما مضى أو من يرغب بالتعرف عليّ، هنا تجد الابتسامة الصافية والمصافحة الصادقة والروح العالية الجميلة الحانية، كان القسم مكوناً من اثنتي عشرة غرفة في طابقين: كل غرفة تتسع لعشرة بالكاد وأبوابها تطل على الساحة، والساحة مستطيل ضيق لا أفق له، حيث تربض على صدره مربعات من الحديد ذات نظرات شامتة ترمي المعتقلين بشررها الحاقد.

شعرت بأنني أستجيب لتحديهم، لن يتوقف قلمي ما دام يغيظهم، هذا التحدي يشحذ قلمي، وكذلك هذه التجارب المتحركة في هذه الساحة، خلف

كل أسير قصة وحكاية، تجربة وعبرة على قلمك أن يعمل فيها عمله رغم أُنوفهم، هناك من وقع في شباكهم وهناك من نجا .. كيف وقع هذا وكيف نجا ذاك؟ أحدث هذا في نفسي زلزلة للوعي .. بسرعة اتخذت قراري، سأجعل من هذه الحكايات خلف ستائر العتمة فرصة لكتاب جديد يخترق جدران سجونهم، ويكشف مكون دولتهم ويعري ألاعيبهم أمام القادمين إلى مرابض الأُسود ومصانع الرجال.

ثقة تنزل عن الجبل !!

في الأُسبوع الأول قرّر قلمي إطلاق سراح قصة الشاب عزيز من سجن النسيان وتحريرها من وراء القضبان إلى العالم الفسيح.

عزيز شاب مربوع قصير القامة ذو وجه مريح رغم القسمات الحادة التي تعلو جبينه، لأول وهلة تحسبه تجاوز العقد الرابع من عمره، ثم تكتشف أنه مازال في العقد الثالث، سمعت قصته فتحرك قلمي مضطرباً، فعرفت أنه يطلب الفيض، فرحمت فيضانه بأن سكبت مداده على الورق، لأُسجل لكم قصة عزيز..

كنّا ثلاثة في الزنزانة، سمعنا قرقعة عند الباب المغلق بإحكام كباب ثلاجة، انفرج الباب الثقيل عن وجه متجهم بغيض، راح يدير عينيه في وجوهنا، توجس كل واحد منا أنه المطلوب للتحقيق، ذو الحظ التعس كان أنا، منذ سبعة أيام بطولها وعرضها لم أتزحزح من هذه الزنزانة، ركّز عينيه في عينيّ وكأنه يقصدني اليوم، نبح ككلب غاضب:

.أنت، قم.. بسرعة.. بسرعة.

هجم عليّ كمن يتخبطه الشيطان من المس، وضع النظارة السوداء المعتمة على عيني، وأطبق قيد الحديد على معصمي، وأخذ يجرّني كما تُجرّ الدابة، يميناً ويساراً، صعوداً ونزولاً.

سمعت صرير باب، وصلت إلى خياشيمي رائحة تختلف عن رائحة الزنزانة العفنة، انتقلت بسرعة من عالم إلى آخر، أجلسني على الكرسي الخشبيّ الصغير، ربط يديّ إلى الخلف، وأخذت أنتظر، وعلى عادتهم السيئة يضعون فريستهم في حالة من الترقب والتحسُّب ليخرج كل أضغانه ذات المرارة من الألم، يصول ويجول في ميادين المواجهة دون وجود الخصم حتى إذا ضاق ذرعاً خرج له المارد اللئيم في مواجهه غير متكافئة، يجلسونك ساعتين.. ثلاثاً.. أربعاً، لا أدري فالوقت طويل وأطول من أي تخيلّ، الساعة كألف يوم مما تعدّون.

صوت أقدام ورائحة آتية، رجل من ذاك العالم قد وصل، نزع برفق النظارة السوداء، فركتُ عينيَّ فوجدت شبح المحقق الذي عرف بنفسه أبو داود، اتضحت الصورة، وبرزت ابتسامة صفراء على وجه أصفر وسحنة من خليط شرقي على غربيّ لا ترى فيه أثر رجولة ولا خيراً، قال مصطنعاً الهدوء:

. أهلا سيّد عزيز، ألا تريد أن تنهي قصتك؟!

. ما في قصة أصلاً.

. أودّ إعلامك سيد عزيز، أن طاقم التحقيق قرّر إغلاق الملف، وذنبك على جنبك، أنا لست مقتنعاً، قد يحوّلونك للاعتقال الإداري وأنت تعرف ماذا

يعني الاعتقال الإداري على ملف عسكري، يعني خمس سنوات ثم نفتح ملفّك، ستندم في السجن، ستقول ليتني اعترفت ونظفت ملفّي، أنت حرّ يا عزيز.

. في كل العالم الذي لا تثبت تهمته يتم الإفراج عنه.

. نحن عندنا ثبت العيد حبيبي، أنت فقط تدير وجهك عن الهلال.

ثم سألني الأسئلة الاجتماعية المعروفة عند إنهاء التحقيق.. أخوتي وأخواتي وسكني وعملي وسيارتي وهاتفي.. إلخ.

أغلق الملف ونادى سجّانه ثم أمره أن يأخذني إلى السجن، وهذا بدوره أعاد النظارة السوداء، فانتقلت من النهار إلى الليل، سار بي عبر دهاليز السجن ثم وجدتُ نفسي أمام هواء عليل لا تشوبه عفونة السجون فأدركتُ أني في فضاء خارجي، سمعت أصوات سيارات بشهيقها وزفيرها ونعيقها، نزع النظارة السوداء عن عيني فوجدت نفسي أمام سيارة البوسطة تفتح فاهها وتنتظر التهام فريستها حتى إذا صعدتُ سُلّمها دفعوني إلى قفص حديديّ معزول عن بقية الأسرى المكدّسين في الجزء الخلفي منها.

وسارت بنا هذه الجنازة المُصفّحة بالحديد، صمّاء لا تعرف سوى لغة القهر ودقّ الألم في ضلوع الأسرى وظهورهم، تنقلهم مكبلين بالحديد يتقاذفهم صندوق حديديّ تنتشر في ثناياه زوايا حادّة لا تعرف معروفاً ولا تنكر منكراً، ويتفنّن سائق البوسطة بخضّ محتويات حمولته، وكأنه يحمل لبناً ويريد أن يستخلص زبدته.

سارت قرابة الساعتين وتوقف مثلها عند بوابة أحد السجون... حملّت ونزّلت من هذه البضاعة البشرية، وبحكم خبرتي المتراكمة من حبسة خلت كنت أُقدّر السجن الذي نقف أمامه، فمن مركز تحقيق المسكوبية في القدس إلى الرملة ثم عوفر ثم عودة إلى الرملة ثم عسقلان حيث كان إنزال البضاعة التي تشكل جسدي المتهالك، وكان في مخيلتي وتقديري بعد مسرحية إيهامي بإنهاء الملف وكتابة التقارير الاجتماعية بأني ذاهب إلى ما يُسمى العصافير، ففي عسقلان لهم قسم كامل من عدة غرف تحاكى تماماً السجون الأمنية في دولة الاحتلال، قصة أصبحت معروفة ولن تخفى عليّ "دواوينهم" في فنون الدراما والتمثيل.

دخلتُ عَسقلان من بوابته العريقة، هذا السجن القديم الراقد جنوب مدينة عسقلان الغافية في الحضن الجنوبي للبحر المتوسط، كم طوى هذا السجن في غياهبه أعماراً مديدة لآلاف الأسرى الفلسطينيين والعرب؟! هنا عالم قائم بنفسه من ظاهره الجمال الساحلي ومن باطنه العذاب، هنا على بوابته ووفق طقوسه السريالية وكالعادة تم تفتيشي عارياً ثم سُحبت مني الأمانات: الساعة وملابسي وبيت نظارتي وربّاط حذائي، ثم مرّوا بي على مستودع السجن لأستلم ملابسه ذات اللون البنّي الشاحب، ثم دفعوا بي إلى أحد أقسام السجن، سبع غرف يتمدد أمامها ممرّ، وأمام الممرّ ساحة تسمّى فورة ، بها يفور الأسرى بحركة دائرية ساعتين كل يوم ثم يُعَادون إلى غرفهم ليقضوا بقية يومهم على أبراشهم يتناجون ويتسامرون ويحصون أيامهم الطوال وسنيَّهم التي تتزحزح الجبال عن أماكنها قبل أن تتزحزح .

راودتني مشاعر باحتمالية أنهم عصافير مع مشاعر توحي بأنه قسم من

أقسام سجن عسقلان الأشمّ.

دفعوني إلى ساحة القسم ،فصاح صائح من الأسرى بالكلمة المعروفة:

على الداير يا شباب.

فيصطف الأسرى على محيط الفورة لاستقبال الوافد الجديد وعناقه فرداً فرداً، عانقت ثمانين أسيراً، ثم التفَّت حولي مجموعة أسرى، يُعّرفون أنفسهم كل باسمه ولقبه وبلده وتنظيمه وفي نفسي منهم هواجس، ثم تارة أقول: هل يعقل أن كل هذا الكم من الناس عصافير؟ قد أكون ظالماً ومسيئاً للظنّ، تذهب بي ظنوني بعيداً فأسقط نظرتي السوداء على أناس شرفاء.

طلبوا مني الجلوس مع لجنة تسّمى لجنة الفرز وهي مؤلفة من كل الفصائل، سألوني عن تنظيمي، فقلت:

.أنا لست منظماً.

فكان السؤال الثاني جاهزاً: عند أي فصيل تحب أن تعيش؟

أجبت: لا فرق عندي.

فسألوا: من تفضّل؟ قلت: لا أفضل فصيلاً على آخر.

. حيّرتنا، لابدَّ من اختيار أحدها. قلت: أنا لا أختار، اختاروا لي أو اعملوا قرعة.

فقال أحدهم: لتكن مؤقتاً في الغرفة الوطنية المشتركة حتى تحسم أمرك.

وذهب بي أحدهم إلى الغرفة حيث الضيافة والاستقبال الحافل، هي أجواء الأسرى السياسيين بكل تفاصيلها، اليساريون ينادي أحدهم على الآخر: يا رفيق، والشيخ يجامل بكلمات ذات طابع ديني : رضي الله عنك، وجزاك الله خيراً، وبارك الله فيك يا أخي. وعندما يُتلى بيان لحركة فتح يختم بثورة حتى النصر، وعندما يكون لحماس مثلاً يختم: وإنه لَجِهاد، نصرٌ أو استشهاد.

أخذت راحتي وحرّيتي دون أيّ إكراه، أجواء طيبه تشعر فيها بالروح الوطنية والدينية العالية، كنت أسترخي على برشي متفكراً: معقول أن يكون هؤلاء عصافير؟ أيبلغ التمثيل إلى هذه الدرجة؟ ولأنه لم يسألني أحد عن أيّ شيء أمني ولا عن قصتي الاعتقالية، ولم يحشر أحدهم أنفه بأي شيء ولم يحاول أن يعرف ما يجول في صدري، بدأ الشك يتزحزح عن صدري، على الأقلّ أجّلت الشك أو الإدانة إلى حين سؤالهم عما خفي عندي.

ومما يرجح كفة أنهم ليسوا عصافير أن أحدهم سألني: هل ذهبوا بك إلى العصافير؟ قلت: لا، من التحقيق إلى هنا، فأجاب: لم يبعثوك إلى العصافير كونك أسيراً سابقاً، كن منتبهاً أخي.

فكيف يُحذرني من العصافير وهو عصفور وفي قسم العصافير؟ ولكن حسب خبرتي السابقة قد يحدث هذا.

ذات ليلة بعد العشاء جلسنا نتابع نشرة الأخبار، ونفتح نقاشاً عن كل شاردة وواردة، كان كل منهم يبدو وكأنه محلل سياسيّ عريق، يتفقون ويختلفون وصدقاً كنت أشعر بالمتعة وأنا أُشنف أذني هنا وهناك، هذه هي أجواء السجن الحقيقية، ولكن بالطبع هناك احتمال بأنهم عصافير بارعون في التمثيل،

وما يدريك؟!

وكان أبو السعيد في العقد الخامس من عمره يبدو أنه يتبوأ عرش الغرفة، يمتطي صهوة الوعي السياسي، تنسدل على ذقنه لحية تتسلل في ثناياها خيوط بيضاء لامعة، عيناه كعيني صقر، يحاول رسم ابتسامة بريئة إلا أنه بدا لي فيها سواد خبيث قاومته قوات الورع في داخلي، يقولون إنه يحمل على عاتقه عدة مؤبدات، ومن الأسرى القدامى الذين أكلت من أجسادهم السجون وشبعت وأعملت فيها سكاكينها حتى ملّت، الكل يهابه ويحسب لحديثه إذا تحدّث حساباً، لم أحاول الاحتكاك به وبآرائه وهو كذلك لم يحاول، من العصفور فيهم؟ أم إنهم كلهم عصافير؟!

أبو السعيد هذا رجل عميق وغامض رغم وضوح آرائه السياسية ومرونتها وابتعاده عن الاعتداد برأيه وتسفيه آراء الآخرين، يقدّم رأيه مع بقية الآراء بتواضع جمّ، ولا يعطيها صورة المسلّمات والقطعيات، مجرّد رأي، من شاء قَبله ومن شاء رفضه، لا يكترث بمعارضة الآخرين ولا مواقفهم، سمحاً في حواراته ورغم هذا كنت أشعر من حركة عينيه بالقلق، وكنت أقول: احتمال التمثيل وارد.

سبقني في الاعتقال صديقي محمود سالم وهو شريكي وأحد عناصر مجموعتي في العمل المقاوم، علمت قبل اعتقالي بأنّه أنهى التحقيق واستقر به المقام في سجن مجدو، لم يعترف ولله الحمد، وهذا أعطاني قوة هائلة في مواجهة المحققين إذ نجح في تجاوز مرحلة التحقيق دون أيّة خسائر، الحمد لله ها هو ذا في مجدو، وأنا في عسقلان، وقد نجّانا الله من مكر المخابرات

ووسائلهم الخبيثة. أما بقيّة المجموعة فهي في منأى عن الخطر، وبقيت بعيدة عن الاعتقال. المخابرات تصّر على اعتقال رئيس المجموعة ولديها أدلّة دامغة من خلال رصد اتصالات ورسائل بريد الكتروني بين الداخل والخارج، هم يعرفون وعرضوا بعضاً منها من أجل تثبيت علاقة بيننا وبينه دون أن يفلحوا، لماذا لا يعتقلونه لغاية الآن؟ لا أدري، قد يريدون من خلال وضعه تحت المراقبة القبض على بقية أعضاء المجموعة ورصد كل من يتصل به، لابدّ من أن يعرف، لابدّ من أن يختفي عن أنظارهم وأن يطارد وألا يكون لقمة سائغة لهم، كيف أبلغه بذلك ؟ أيمكن إرسال رسالة إلى محمود في سجن مجدو وهو يرسل للخارج برسالة تحذير؟ أُريد أحداً أثق فيه، ليت هؤلاء مناضلون،! أسأل الله أن لا يكونوا عصافير.

فجأة وبكل عنف وقسوة دفعت الباب قوة تسمى (متسادا)، خلال ثوان كان كل من في الغرفة مقيد اليدين والرجلين ومطروحاً على بطنه، حشروا الجميع في زاوية من زوايا الغرفة وعاثوا في محتوياتها فساداً، هذه الفرقة أُعدّت خصيصاً لقمع الأسرى وقهرهم وإشاعة جوّ من الرعب والإرهاب من أجل إخضاعهم لإدارة السجون، سحبونا بعنف إلى الفورة، وتكرر الأمر مع بقية الغرف أيضاً.. يخرجون من فيها من الأسرى بعنف وقسوة، رأيت أبا السعيد عندما حاول مناقشتهم والاعتراض على هذه الوحشية، دفعوه بعنف وتناوشته هراواتهم دون رحمة..

ثم بعد ذلك تقول في نفسك عنهم عصافير!! مستحيل بعد هذا المشهد أن يتبادر لذهني أنهم عصافير، هكذا يضرب كبيرهم ويؤخذوا بكل هذا العنف، أيقبل أحدٌ من البشر أن يكون موظفاً ويقمع بهذه الوحشية!!

لم يمرّ عليّ ولا سمعت بأن العصافير قد تعرّضوا لمثل هذا، حدّقت في وجوههم كثيراً وتساءلت في أعماقي: ما الذي يحمل هذا الصنف من البشر على أن يكون عميلاً، خادماً لأعداء شعبه ومتفانياً في إيصاله لهدفه، يمعن في جراحات ناسه ويقدّمهم لقمة سائغة لماكنة التعذيب، يدخلهم جهنم سجونهم بيده، ليقضي الواحد منهم زهرة شبابه في غيابة الجبّ؟ ما هي طبيعة هذه القلوب ؟ وكيف وصلت إلى هذه الدرجة من الانحطاط؟!

لملم الأسرى جراحاتهم وكان يوماً شاقاً بعد هذا الاجتياح والتدمير المادي والنفسي، الاقتحام تخريب لمحتويات الغرف البائسة كما هو تخريب نفسي لمحتويات الصدور، لولا الشعور بالتحدي وأن المعركة معهم طويلة وهي معركة بقاء لجذوة القضية العادلة في أعماق الصدور، الأسير الفلسطيني لا يتخلى أبداً عن شعور دائم يلازمه هو أنه الثابت والباقي على هذه الأرض، وهذا الاحتلال عاجلاً أم آجلاً زائل ومرتحل إلى مزبلة التاريخ، ينتابني شعور يتعاظم في صدري:

هؤلاء وطنيون أحرار ولا يمكن أن يكونوا عصافير.

بعد نهار طويل شاق هجعنا في غرفنا وتسمرّنا أمام نشرة أخبار المساء، وكنا على قناة إخبارية إسرائيلية، فجأة انتقل المذيع إلى تقرير عن ملاحقة خلية خطيرة في الضفة الغربية منطقة سلفيت، والأجهزة الأمنية الإسرائيلية تصبّ كل جهودها من أجل اعتقال رئيس الخلية، وتحدّث التقرير عن وصف اثنين من المعتقلين واسم قريتهم بما ينطبق تماماً عليّ وعلى صديقي محمود سالم الموجود في سجن مجدو، هل ترى صاحبنا في الخارج قد سمع

هذا الخبر؟ لابدّ من إيصال رسالة له ليأخذ حذره، ليس معقولاً أن يعتقل على حين غرة ويؤخذ هكذا لقمة سائغة، إذا اعتقلوه فإن احتمال نجاحهم في الإيقاع بيننا وبذر بذور الشك أمر وارد، التحقيق مع ثلاثة يختلف عن التحقيق مع واحد أو اثنين، لابدّ من إرسال رسالة ولكن كيف؟؟ سألت الله أن يريني رأياً قاطعاً في هؤلاء الذين أعزف معهم سيمفونية واحدة منذ الأسبوعين، هذا الخبر وعلى التلفاز وعلى محطة إسرائيلية معروفة لا يمكن أن يكون مدبلجاً، معقول هؤلاء عصافير وهذه نشرة أُعدت خصيصاً لهذه الشاشة!!

فعلاً أصبحت تشطح بعيداً، أسير سابق أسير للهوس الأمني، أوشكت أن أتهم نفسي بأني عصفور، لا سيدي، على رِسْلِكَ.

صباحاً جاءتنا جريدة القدس العربية، أعلم أن هذه الصحيفة تدخل السجون، تلقفتها بعد أن تصفحها أبو السعيد وألقى بها جانباً، معلقاً: لا جديد، أخبار مملة.

توقفت عيناي على ذات الخبر الذي سمعته عبر التلفاز، إنه في جريدة القدس، فالأمر إذاً لا يحتمل الشك، لابدّ من الرسالة، أصبحت ضرورة، عليه أن يحمي نفسه من خطر الاعتقال وأن يحذّر بقيّة المجموعة وأن يسحب خرائط النقاط الميتّة التي أخفينا فيها السلاح من المعرضين للاعتقال خشية اعترافهم عليها، لابدّ من رسالة، أصبحت ضرورة ملحّة كضرورة الأُوكسجين للدماغ.

وبت ليلة أتقلّب فيها على فراشي دون أن يطرق النوم بابي، في الهزع الأخير

من الليل هزّ أُذنيّ أزيز صدر أبي السعيد وهو قائم يصلي، خاشعاً متبتلاً مخبتاً تترقرق حروف ما يتلو من القرآن على صفحة قلبه، ويظهر أثرها في عينيه الدامعتين، كان منكسر القلب مهيض الجناح، سيماه في وجهه من أثر الخشوع.

وما أن أقبل أذان الفجر بتهاليله المباركة وروحه المشعشعة حيث صدع به أحد الأسرى من غرفة مجاورة ، إلا وكانت الغرفة بكل فرسانها قائمة مستعدة لعناق الصلاة، أعلم أن صلاة الفجر من أشدّ الصلوات على المنافقين، ما لهؤلاء ينفرون خفافاً وثقالاً!! أيعقل أن يكون هذا القسم قسم عصافير!! دعك من هوسك واستغفر الله، وإذا قلت إنهم في الصلاة والخشوع يمثلون كما تعلم سابقاً فماذا عن هذا الوعي السياسي؟ وماذا عن هذا الخبر الذي يذاع عبر التلفاز ثم يأتي في صحيفة القدس؟ وماذا عن القمع، هراواتهم التي لعبت على جسد كبيرهم أبي السعيد؟!!

صباحاً نادى مناد في القسم على نقليات إلى سجون أُخرى، وكان أحدهم من قاطني غرفتي منقولاً إلى سجن مجدو، فرصتك أتت عندك، رسالة إلى محمود سالم وهو بدوره يتواصل مع الخارج من خلال زيارات الأهل أو زيارة محامٍ.

سحبت قلماً وكتبت تحذيراتي وكبسلتها بخبرة أسير سابق يعرف كيف يتم لف الرسالة وتغليفها بالبلاستيك باحتراف، ووضعتها في يد كبيرهم وأتقاهم احتياطاً مني إذ إني لا أعرف المنقول ثقة أم غير ثقة، أبو السعيد لا يمكن أن يصادق على إرسالها مع من هو غير ثقة.

ومضت سحابة النهار ويدي على قلبي، لو كانوا عصافير لسحبتني المخابرات فوراً من عندهم، أعود إلى نفسي وسؤال يضرب بنصاله أوتار قلبي: ما هذه المغامرة؟ ولماذا حزمت أمري واعتمدتهم ثقة على أسرار في غاية الخطورة؟ أرجع القول: لابدّ من المغامرة وللضرورة أحكام. أبتهل إلى الله وأستحضر مشاعر التوكل فينادي قلبي : أهو توكل أم تواكل؟! ولكني جمعت نقاطاً كثيرة تؤكد أنهم ثقة، يعود نداء العقل: وهل تلغي الثقة الحذر وتدوسها تحت قدميها ؟ هل أسمح للثقة بالنزول عن الجبل ؟ ثم أسأل روحي: وهل التلكؤ أمام خطر داهم يوشك أن يبتلع ما تبقى لنا خارج السجن أمر إيجابي؟ أم إنه إهمال ما بعده إهمال؟!

مضى هذا النهار بطوله وعرضه ولم تسحبني المخابرات، فالرسالة إذاً لم تصلهم ولله الحمد، مضت في طريقها إلى مجدو حيث محمود سالم وعمل اللازم.

صباح اليوم التالي نادى المنادي على اسم من غرفة مجاورة للإفراج عنه، توجهت إلى أبي السعيد وسألته هامساً: هل هذا الشاب ثقة؟ صمت أبو السعيد قليلاً ثم قال بشيء من الحزم:

. هو ثقة ولكن دعني أتثبت ليطمئن قلبي، دقائق وأعود إليك.

وعاد أبو السعيد مؤكداً مصداقية الرجل، فانطلق قلمي يشق طريقه ويرمي مداده برسالة عاجلة تقي خطراً داهماً وحذراً لابدّ من إيصاله، كسالفتها كانت بيد أبي السعيد - أسعد الله أوقاتكم- سحبوني من نومي منتصف الليل لأجد نفسي في دقائق معدودة في مكتب المخابرات وهو يقرأ رسائلي ويترنم بها مبتهجاً.

عصفور على الفيس بوك

هذه المرة كان الألم من نوع آخر، كاد القلم يحترق لنهاية قصة حب فيسبوكية، سناء التي أضاءت فضاء الجامعة بسنا نورها كانت لها قصة غريبة..

سناء ناشطة طلابية في جامعة بيرزيت لها نصيب من اسمها فسناها يكاد يخطف الأبصار، تجدها في كل نشاط عام محور هذا النشاط، مولد طاقة وهمّة في أغلب ميادين النشاط، رشيقة، نحيفة، تميل إلى القصر قليلاً، لصوتها رنة عالية من يسمعْها ويَرَها يقل : صوتها أكبر منها، كل شيء فيها يتحرك، رأسها الصغير، عيناها، ويداها، ولسانها، كل شيء فيها يقول لك: تحرك معنا.

وكانت كذلك نشيطة في العالم الافتراضي، صفحتها على الفيس بوك كما هي شخصيتها، دائماً متحركة، متوثبة، تغذيها باستمرار وترعاها كمّاً ونوعاً، لا يبعدها كثرة ما تنشر عليها عن الدقة والعمق وبزوغ الحكمة في ثنايا ما تكتب، تنتقي أصدقاءها على الصفحة بعناية فائقة، ليس من السهل الموافقة على طلب صداقة، تودّ أن توصل إبداعها لكل الخلائق، دائرتها المغلقة تتوسع بها برويّة وتدقيق طويل.

كانت الجامعة في بداية الفصل الثاني لسنتها الرابعة تمور بالأنشطة الاستقطابية للكتل الطلابية، الانتخابات على الأبواب، وكل يعرض بضائعه بكل ما يملك من مهارة وروعة، الجامعة تتزين وتستعد للعرس الديموقراطي كما يصفونه، يتباهون به ويعدونه من مظاهر الجامعة، وكانت سناء تمخر الجامعة طولاً وعرضاً، تتحرك وتحرّك غيرها بكل ما في وسعها من جهد ، ما أن يأتي آخر النهار وتصل بيتها في مدينة البيرة إلا وكانت كالشمس وهي تغرب في آخر رمق، تذوي ذابلة لتغرق في سبات عميق استعداداً لظهور المشرق من جديد، قبل أن تخلد إلى النوم وجدت رسالة جميلة سلبت من عينيها الرغبة في النوم.

(سلام الله عليك أيتها الرائعة لا أبالغ ولا أعرف وتخوننني لغتي المتواضعة، ولن أعطيك معشار حقك، أنّى لي وصف روحك العالية أو كلماتك السامقة أو حكمتك البالغة، أنّى لي أن أحظى بنظرة منك، أنّى لي أن أقف على شاطئ بحرك الواسع أو على طرف من أطراف جنتك الوارفة، هل لي أن تأخذني جرأتي لطلب صداقة على صفحتك الغراء، هل لي أن أطمع في بحر كرمك الذي يفيض لعبد فقير مثلي يقف راجياً على أعتاب بيتك الجميل؟).

وقفت طويلاً في محراب هذه الرسالة: آن لك يا سناء أن تفكري في نفسك قليلاً، أنت خريجة هذا العام، أي على أبواب مرحلة جديدة من حياتك وكل بنت في هذه المرحلة تفكر بشريك حياتها، هذا الشاب معجب يطرق الباب ويريد الجواب، لم أعتد مثل هذه الرسائل كنت أقطع طريقها فوراً دون تردد، لماذا الآن تتوقفين؟ هل سحرك بكلماته المنمقة وقد تكون سرقة من النت، فيه مخزون هائل مثيل هذا الكلام، على عادتك اقطعي هذا الخط...

لا، لن أغلق هذه المرة سأسير ووفق خطوات مدروسة، سأوغل برفق إن شاء الله.

قبلت صداقته وردت باقتضاب.

- حياك الله يا أخي، أشكرك على رسالتك، إن شاء الله أكون عند حسن ظنك.

وجاءها الرد مسرعاً:

.أقف عاجزاً عن شكرك، شعرت عندما تلقيت ردك الجميل بأني أسعد إنسان على وجه الأرض شعرت بفرحة تائه في صحراء قاحلة قد وجد نخلة وافرة الظلال قد جعل الله تحتها سرّياً، أشكرك من أعماقي.

لم تعقب رغم اهتزاز أوتار قلبها، حللت رسالته حرفاً حرفاً، بشغف وإعجاب، لغة جميلة ذات نكهة قرآنية، ترنّمت: قد جعل الله تحتها سرّياً.

وراح يعلق على منشوراتها، وكل ما على حائط صفحتها، ويكتب بإطراء وإعجاب ويحلّق في فضاء معانيها ويتحفها بشكل دائم ما يطرب قلبها.

كانت تقول لصديقاتها دائماً: كانوا يقولون قديماً: قل لي ماذا تقرأ أقل لك من أنت، اليوم أعطني صفحتك على الفيس بوك أقل لك من أنت، راحت إلى حسابه على الفيس بوك وأخذت بريشة قلبها ترسم ملامح شخصية هذا المرشح أن يكون فارس الأحلام.

صفحته جدّية، يطرح آراء سياسية تنسجم مع آرائها تماماً، واضح أنه صاحب رسالة في الحياة، أهدافه واضحة، تجد على صفحته مصدراً من

الطاقة الإيجابية، يبشر بالفضيلة والقيم العالية، مثقف يحمل في ثنايا ثقافته روحاً عالية، لم تجد على صفحته ما يخل بهذه الصورة الجميلة، علقت في نفسها، يلتقي معي تماماً باهتماماتي وله ذات الرسالة والهدف مع مثل هذا تحلو الشراكة، ماذا قلتِ يا سناء! الشراكة؟!

كتبت على حسابها خاطرة ضخّت فيها دفقات عالية من روحها، كانت بمناسبة استرداد جثمان الشهيد بهاء عليان شهيد القراءة وسلسلة المعرفة الطلابية، قالت: شاب أصر على أن يوصل رسالته بدمه، نحن أحياناً نشح أن ندفع من مداد أقلامنا، لقد حفر في قلوبنا حروفاً من ذهب، لن تمحوها الأيام وستبقى خالدةً ما دامت تجد من يحييها في واقعنا من جديد.

وضع إعجاباً وأرسل رسالة:

"بالفعل سيبقى منارة عالية، ستبقى دماؤه نوراً يسري في قلوبنا، اقترح عليك سيدتي بإطلاق منتدى للقراء يحمل اسم بهاء، سأكون داعماً لهذا المنتدى، مضطر للحديث عن نفسي للضرورة، وضعنا المادي ميسور، والدي تاجر غني من أكبر تجار نابلس، أنا مهندس عندي مكتب هندسي ومقاولات ميسور الحال أيضاً، اضطررت لهذا الحديث كي لا تترددي بأية تكلفة ممكنة لهذا المنتدى أو غيره من الأنشطة التي تخرج من ثنايا همتك العالية، احترامي".

أطرب هذا الكلام مسامعها وصارت روحها تحلق عالياً وتتوق لرؤية هذا الصديق، حاولت من خلال ألبوم الصور رؤية صورة له فلم تجد، واضح أنه حريص ألا تكون له صورة، لماذا؟! شكرته على رسالته،

" كل الشكر والاحترام على هذه الفكرة الرائعة، أعتقد أن هذه الأنشطة تقوم بها روح التطوع القوية في جامعة بيرزيت، رسالتك عنوان لشخصيتك الرائعة، دمت ذخراً لهذا الوطن الغالي، أشكرك من أعماقي ".

ضربت بسبابتها على أرسل: ثم عادت القراءة، شعرت بأن هناك شيئاً يسري في عروقها ويدب في أوصالها، أعادت: أشكرك من أعماقي وهتفت في أعماقها: إنه الحب يا سناء يخترق كل حصونك، يا له من شيء لذيذ!

أطلقت قليلاً لروحها العنان، صارت تقرأ منشوراته على صفحته وتعلق مما يحلو لها وأحياناً تنتقل لتكتب ما يحلو لها كرسالة خاصة، وهو يرد فوراً بما هو أحلى وأجمل.

ومع الأيام تكسرت الحواجز واشتد لهيب العواطف، أصبح الحديث شيئاً فشيئاً صريحاً مباشراً لذيذاً جميلاً، غرقت في عالمه بينما هو بقي صائداً ماهراً يدير اللعبة بفن واحتراف ويحكم شِباكه عليها حتى تحين لحظة الانقضاض.

انفلت عقال لسانها وانتقلا إلى الحديث المباشر، ودخل كلٌّ منهما في عالم الآخر صارت سناء تحن إلى بيتها كما تحن الطيور إلى أوكارها، ما أن يجن الليل حتى تفتح حبل الوصال وتناجي وتهامس وتبث كل مشاعرها الجميلة دون أدنى تحفظ، هذه التي كانت ملكة تهابها وتهاب صفحتها كل كلمة يفكر صاحبها أن يدخل حصنها، ولا تكاد تصل وجلة خجولة إلا ويرتد طرف صاحبها وهو حسير، أصبحت اليوم مع هذا الحبيب منطلقة ترسل وتستقبل بغير حساب. ولما تسأل نفسها تجيب: إنه الحب، لقد وقعت في الحب يا سناء ولم يسمَّ عليك.

أصبح الحديث يتوسع يوماً بعد يوم، من عالم الوطن والسياسة إلى الأنشطة في الجامعة ، كانت تصف بدقة جوّ الجامعة اللّذيذ الذي تتحرك فيه كل مشاعر الشباب المتألقة للحياة والإبداع، وهي كانت تتحرك في المطبخ السياسي وفي بؤرة العمل الطلابي، أحياناً تنفس عن ضيقها من ممارسات الكتل المتنافسة، تشكو فلاناً وعلاناً وتمدح أصحاب الهمم العالية والنفوس الطيبة، تذكر أسماء الناشطين، كل نشاط ومن يقف خلفه ومن يقوم عليه بأدق التفاصيل، أصبحت تضاريس العمل الطلابي في الجامعة بين أيدي الحبيب بتفاصيل تفاصيلها، وكأنه عيناها يسير معهما أينما حلّت أو ارتحلت.

لاحظت أمها انهماك ابنتها سناء كل ليلة، تغلق باب غرفتها وتسبح بعيداً، انزوت بعيداً عن حياة العائلة، أمها تتمتع بروح شبابية، مرحة تشارك ابنتها وتحادثها بكل شؤونها، تبادلها الرأي وتشجعها دوماً على فعاليتها العالية، واعتادت هي وابنتها أن تتصفح كل منهما صفحة فيس بوك الأخرى.

انتبهت أُمها لرسائل مطولة من الشخص نفسه على صفحة ابنتها، راحت تراجع هذه الرسائل وتدقق بروح الأم الواعية، لاحظت حجم انجراف ابنتها وسيل المعلومات الهائل الذي استطاع هذا الشاب أن يحصل عليها، كان دهاؤه عظيماً وتسلل إلى شخصية ابنتها بشكل متدرج ومتصاعد وذكي وعاطفي، وقفت في الرسائل الأخيرة على طلبه من ابنتها أن ترسل له صورة لها، أرسلت له ثلاث صور، هي طلبت صورته فلم يرسل لماذا؟!

واجهت ابنتها، تورّد وجه سناء، قالت بحياء وجرأة:

. كأنه مكتوب على كل فتاة أن تقع في حب شاب.

. لم أسأل عن هذا الجانب، هل سألت نفسك عن حجم المعلومات التي وضعتها بين يديه؟

. هل تقصدين؟! لا! مستحيل!

. هل سمعت عن العصافير؟ قرأت عنهم كثيراً، صحيح؟

. العصافير في السجون!

. ألا يوجد مثلهم مثلاً على الفيس بوك، خارج السجون؟

. قصدك عصفور؟!

. هوّني عليك، هو أعطاك اسمه الرباعي، هو من نابلس، وهو حسب ما قال خريج جامعة النجاح، صحيح؟!

. نعم صحيح

. سألت عنه، لا يوجد في سجل سكان نابلس ولا فلسطين كلها هذا الاسم، ولا يوجد في سجل خريجي جامعة النجاح!

ارتعبت سناء، ضجت في أعماقها، زلزلت أركانها، تفصد جبينها عرقاً، تابعت أُمها:

. كيف غاب عنك أن تبحثي عن جذوره؟ أكيد قلّبتِ صفحته على الفيس بوك، حسناً طلب لك صوراً فأرسلت له، أنت طلبت صورته ولم يرسلها لكِ، لماذا؟

. أنتظر إرسالها. قالت وهي تبلع ريقها.

. أعتقد أنه لن يرسل لك صورة، أو يمكن أن يرسل صورة شخص آخر، على كل اطلبي لقاءه وجواله، قولي له: أنا صارحت أمي بعلاقتنا وهي طلبت لقاءك، ادعيه لزيارتنا.

. أمي حبيبتي، أنا في ورطة، كان على عينيّ غشاوة، لا أدري كيف سارت بي الأُمور، لم يكن الأمر سهلاً.

. آخ على بنات اليوم، أنت مثلاً واعية جداً، شخصية ريادية وبناء قوي يناطح السحاب، أمام الإغراء العاطفي وقعت كفراشة.

دعته للقائها، تهرب طويلاً، قالت له إنها صارحت أمها وأمّها تصر على لقائه بهدوء وثقة قال:

. أنا من وحدة الفيس بوك التابعة للمخابرات الإسرائيلية.

. صرخت

. عصفور إذاً؟!

. عصفور جميل، ما رأيك عزيزتي أنت أمام خيارين لا ثالث لهما: إما أن نستمر معاً أو الفضيحة، لديّ من المعلومات ما يشلّ عِرضك، أنتِ مصدرها، فكّري جيداً أنتِ ما زلت في بداية حياتك.

تحقيق في فيلا

وجاء الأُسبوع الثالث وكان قلمي خلاله صنارة تحوم في لجج الأسرى والمعتقلين علّه يصطاد قصة ثانية ، فكان أن علقت بصنارة مداده قصة الأسير المخضرم أبي محمد في العقد السادس من عمره، وإليكم خبره..

أبو محمد رجل أعمال وصاحب سيرة طويلة في النضال، متزوج وصاحب بيت كبير يضج بالحركة والبركة، يزحف بعمره ويقترب من الستين، متزن وقور بطيء في حركة جسمه لبدانةٍ وزيادة في الوزن، وصاحب خبرة اعتقالية غنية حيث قضى في السجن خمس عشرة سنة.

اعتقلوه من بيته العامر في المدينة العامرة نابلس وجاءوا به إلى سجن مجدّو دون تحقيق ودون أن يمر في البرزخ الفاصل بين الحرية والسجن، مكث في السجن عدة أيام ليرى حياة الأسر من جديد ولتثور في أعماقه كل ذكريات الأسر السابقة، كان فيها مصدوماً وكان صعباً عليه العودة إلى السجن في هذه السن المتقدمة وأغلب ما فيه من جيل أحفاده وأولاده.

تقلّب عليه في الاعتقالات السابقة محققون كثر دون أن يلين لهم بشيء، كان كالصخرة الصماء تكسرت عليها مقالبهم وألاعيبهم، وهم على عادتهم

يعملون كفريق متكامل ويتدارسون معاً كل حالة تستعصي على أساليبهم الماكرة، يفكرون طويلاً يعملون كثيراً دون كللٍ أو ملل، أبو محمد شكّل لهم عقدة كبيرة وكان لابدّ من حل خارج حدود صندوقهم الأسود فماذا تفتّق عن هذه العقول العفنة؟ وبماذا يفكّر أبو محمد في الردّ على خططهم الجهنميّة؟!

صبيحة اليوم الحادي والعشرين جاءه كبيرهم الذي علمهم السحر، كان مبتهجاً، فرحاً يشع ناراً ذات لهب ويحاول جاهداً إظهار نورها وإخفاء لهيبها:

. اسمع أبو محمد، لك عندي اليوم مفاجأة عظيمة، لم تخطر على بال أحد، ما رأيك أن تغيّر جوّ التحقيق، وننتقل إلى جوّ مريح نفسياً.

رد أبو محمد ببرود غير مبال:

. أنت الذي يقرّر هنا، أنا أسير ولا رأي لي.

ردَّ كبيرهم متصنّعاً الغرابة والاندهاش:

. اسمع أبو محمد، ستذهب اليوم برحلة إلى شاطئ البحر، منذ كم سنة لم تر البحر؟!

أجاب أبو محمد:

. منذ عشرين سنة، تمنعوننا من شواطئنا، احتلال محترم، ما في مثلكم في العالم.

. منذ عشرين سنة.. أوه فترة طويلة، منعناكم لماذا؟ عنفكم وإرهابكم هو

الذي منعكم، كنتم مسالمين وكانت شواطئنا مفتوحة لكم.

. ولما أصبحنا وحوشاً وتركنا إنسانيتنا المسالمة لكم ضاعت منا شواطئنا، مسكين هذا الاحتلال المحترم.

. دعنا من تهكمك أبو محمد، تعال بنا لنغيّر الجوّ، نفتح حواراً هادئاً في أجواء جميلة، عمرك ما حلمت فيها، هل تخاف من الخروج معنا في رحلة؟!

. أنا أخاف منكم؟!

. إذن أنت موافق على شطحة معاً على شاطئ البحر.

. لا موافق ولا غير موافق، الأمر ليس لي..

. إذاً سننطلق بعد نصف ساعة، سافر في خيالك إلى أجمل رحلة في حياتك، ولا يهمك أبو محمد..

يقول أبو محمد وخرجت معهم بعد وضع القيد في يديّ وقدميّ لأعتلي المقعد الخلفي من جيب حديث فيه كل الإضافات والكماليات، كان زجاجه معتماً، جلس معي جندي وفي المقعد الأمامي كبيرهم، وقاد الجيب أحد المحققين.

كبيرهم كان نحيفاً فارع القامة مخسوف الوجه، تعلوه صلعة أكلت ثلثي رأسه، في العقد الخامس من عمره الأسود، عيناه خضراوتان لا لمعان فيها، باهتة تقدح بالشّرر، خاطبني مع انفتال جسمه باتجاهي:

. ماذا تحب أن تسمع أبو محمد؟

. افتح ما بدا لك.

. سأتحفك بأم كلثوم، أنت راكز وكبير لا يعدل رأسك إلا الحجّة..

وترنّم القلب وارتعشت كل خلايا جسمي وهي تتلقّف ألحاناً طال شوقي إليها، كيف تبحر هذه الموسيقى العريقة في بحري الهادر؟ من الزنازين القاتمة القاهرة المذلّة إلى هذا الجيب الفاخر بكل مفاتنه، يمشي يمخر الطريق ويشقّ عُباب بحر الحياة الجميلة وزد على ذلك أم كلثوم، هذا الصوت الآتي من البعيد الأروع في حياتنا والمحمّل بذكريات لحظاتنا الحلوة وأيامنا السعيدة، إنس هؤلاء الشياطين أبا محمد، وخذ لنفسك استراحة مجاهد. كيف أنساهم وهم يحتلون مقاعد السيارة وأنا مكبل اليدين والقدمين؟

سرنا جنوباً في خط سريع تصوّرته الخط الساحلي الذي يربط شمال فلسطين بجنوبها، هذه الحبيبة التي طال اغتصابها، هل سنعود إليك حبيبتي لنشهد آخر أيامنا على ثراك الطاهر، لنعبق من روائحك التي تحمل ماضينا وتنشئ الأمل في أرواحنا، فعلاً فلسطين جميلة، أكيد ستمّر مركبتنا بالقرب من مدينة اللّد، بلدي الأصلي، ما زالت أمّي مدّ الله بعمرها تسبح طويلاً بمسبحتها الطويلة، وتقطع تسبيحها كثيراً لتتغزّل في اللّد وتثير قصص الطفولة في ربوع هذه المدينة العظيمة.

هتف أبو محمد:

. إني أشمّ رائحة اللّد..

خفض كبيرهم صوت أم كلثوم ورفع عقيرته:

. صحيح نحن قريبون من اللّد، وما علاقتك باللّد، أنت من نابلس؟

. أنتم ما علاقتكم باللّد؟ بلدي الأصلي وبلد آبائي وأجدادي.

. الذي فات مات حبيبي..

. والذي تدَّعونه من ثلاثة آلاف عام ألم يمت؟

. اسمع أبو محمد، العالم اليوم للأقوى، الاتحاد السوفيتي كان قوياً، بعد انهياره وضعفه تفكَّك، اندثرت دول وقامت دول.

. الظلم يقصر أعمار الدول، وأنتم ظلمتم كثيراً.

. نحن دولة قانون وعدل والذي يخطئ يحاسب ويدفع ثمن خطئه، انظر رئيس دولتنا السابق في السجن.

. ولكنّكم لا تحاسبون من يظلم الفلسطيني، هل سمعت محاكمة لقاتل فلسطيني؟

. نعم، حاكمنا قبل أيام الجندي الذي قتل شاباً من الخليل بدم بارد.

. صحيح، حكم تسعة شهور إقامة جبرية في قاعدته العسكرية، ألا ترى في ذلك مهزلة؟ ماذا تحكمون لو كان الأمر معكوساً؟ إنه المؤبد، هذه هي عدالتكم؟!

ردّ بنبرة صارمة:

. أبو محمد أنت تفكيرك إرهابي..

. صحيح كل من ينتقد إرهابكم فهو إرهابي.

يتكلّف ابتسامة ويردّ:

. أبو محمد لا تنسَ نحن ذاهبونفي رحلة، استمتع ولا داعي للسياسة، أم كلثوم تسلّم عليك.

ويرفع صوتها، ملأتُ عيني وروحي وقلبي من جمال الساحل الفلسطيني، كان الجوّ ماطراً وكانت أحياناً تتحرك مسّاحة الجيب دافعة للأمطار المنهمرة يميناً وشمالاً، روعة لم أكن أشعر بها كما هي اليوم.

ماذا يريدون مني في هذه الشطحة؟ لم يسبق أن أخذوا أسيراً للتحقيق في مثل هذه الأجواء التي حدثوني عنها، وهذا الجيب، الأسرى دائماً ينقلون في سيارة البوسطة سيئة الصيت والسُّمعة، تلك حافلة كلها حديد حتى إن عجلاتها ودّوا لو تكون حديداً، سائقها يقودها قيادة حديدية مزعجة، لماذا هذا الأسلوب الجديد؟ هل كما قالوا إنهم يريدون أجواء نفسية مريحة؟ أم إنهم كما قالوا أيضاً يرون بأني قيادي وتنظيمي يملك كل خيوط التنظيم في المنطقة، وبالتالي أستحق منهم هذا الأسلوب المميّز طالما أن أساليبهم التقليدية لم تجد معي نفعاً؟!

ويسير الجيب بسرعة عالية نحو الجنوب، أشعر أني أقترب من قطاع غزة، سألت وجاءني الجواب:

. رحلتنا قرب غزة، ربع ساعة ونكون هناك، سنَستنشق عبير غزة أبو محمد، لو رفعت صوتك لسمعك إسماعيل هنية وكل أصدقائك في التنظيم هناك:

. لا أصدقاء لي هناك.

.الشمس لا تغطى بغربال يا زلمة.

اقشعرَّ بدني وأنا أقترب من غزة؟ لي أصدقاء كثر هناك، التقيتهم في السجون، عشنا معاً في السراء والضراء وقطعنا سنوات السجن معاً بحلوها ومرّها، والآن نحسب ألف حساب لأي اتصال من غزّة، قرون الاستشعار لدى المخابرات تتابع أنفاسنا وتلتقط اتصالاتنا.

تخيلت لو كانت هذه الرحلة مع العائلة وأنا أشرح لأبنائي وأحفادي عن فلسطين، ماذا سأقول لهم عن غزة؟ وكيف تستقبل العائلة بكبيرها وصغيرها فلسطين الحبيبة بساحلها البهيج؟ أينما تولّي وجهك تجد السهول الخضراء، لقد عرفوا قدر هذه الأرض واستغلوها أبشع استغلال، كنت آتي غزة في ثمانينيّات القرن الماضي، ساعة ونصف من نابلس إلى عمق غزّة، كنت آتيها رحلات شبابية ورحلات عائلية، آتي مع الزوجة والأبناء ونقضي أوقاتاً ممتعة على شواطئ غزة، وكانت حواجز الاحتلال العسكرية تنتشر في قطاع غزّة من بدايته إلى نهايته، ولا تدعك تنسى القبضة الحديدية والحكم العسكري المقيت الذي يربض على صدر القطاع، اليوم أصبحت غزّة شوكة عصيّة في حلق الاحتلال.

في منطقة قريبة من نقطة الحدود الشمالية لقطاع غزّة وأمام فيلا جميلة يحيطها النّخيل من كل جانب وتتقدَّمها حديقة ذات بهجة يتوسطها ممرّ تحفه من جانبيه مجموعة من شجرات الأرز وكأنهم يستحضرون الجمال اللّبناني ويزرعونه هنا، ولجنا بسيارة الجيب مع أربعة رجال الظاهر أنهم كانوا يستقلون سيارة تسير خلفنا، شكلهم يوحي بأنهم حراس أو رجال أمن،

رحّبوا بي، فكّوا وثاقي،وقالوا: لا يمكن أن تكون رحلة مع قيود، تعذّر كبيرهم عن عدم قدرتهم للذهاب إلى شاطئ البحر لشدّة الأمطار وقال إننا في هذه الفيلا على الشاطئ لا يفصلنا عنه سوى عشرات الأمتار.

جلس كبيرهم قبالتي، استرخى على كنبة وافرة عريضة وقال:

.أنت ضيفي أبو محمد في هذا المكان، ما رأيك؟ جميل؟

أجبت وعلامات التعجب مرسومة على صفحة وجهي:

.بالتأكيد جميلة..

. سأتركك الآن لتأخذ حماماً ساخناً، تنفض عن جسمك تعب الزنازين وتضعها خلف ظهرك، ونتناول بعدها فطورنا.

وجدت نفسي وحدي، لا أحد معي، فليكن حماماً ساخناً، لم لا يا أبا محمد؟ تصفحت الأبهة التي أصبحت فيها وكأني في حلم، الأرائك العريضة والتحف المنثورة في كل الزوايا، ديكورات جميلة جداً للسقوف وأضواء تمرّ عبر ثريات زجاجية تجعل منها متعة خاصة، نظرت من إحدى النوافذ فرأيت البحر، هائجاً غاضباً يكاد يبتلع اليابسة، ولكنه سرعان ما ينقلب على نفسه وتعود أمواجه أدراجها، أسمع صوته، يهدر من كل جانب ويزمجر، ماذا يريدون مني في هذا المكان؟! ليت أم محمد معي لنرسم في خارطة حياتنا مشهداً جميلاً، لم تر معي سوى السجون، يوماً طالعاً ويوماً داخلاً، ها أنت ذا تقعد وحيداً يا أبا محمد، يعزلك عن حياتك ويحمّلك جميلا أن أتاح لك فرصة حمّام ساخن، لا بأس فليكن ولأرى نهاية هذا الفيلم.

دخلت حماماً ليس كالحمامات، واسعاً جميلاً، ذا رائحة منعشة، ماؤه بكبسة كهربائية يتساقط رذاذاً قويّاً يعمل للجسم شبه مساج، حمام دافئ دون أي شعور بالبرد لأن الفيلا مكيّفة وكأنها خارج فصل الشتاء، يتنعَّمون على حسابنا، سيطروا على خيرات بلادنا وصنعوا لأنفسهم حياة مترفة تحفُّها المتعة من كل جانب، ولن أُفسد هذا الحمام بالحديث عن حمّام الزنازين أو حمامات السجون.

خرجت من حمامي لأجد طاولة السفرة مُدّ عليها الطعام كمّاً ونوعاً وعرض مفاتنه عرضاً متألقاً، وجدتهم ينتظرونني لنأكل معاً، هبطت على المائدة وأكلت بشراهة وكأنهم غير موجودين معي، ولم ألق لهم بالاً، هتف كبيرهم:

. فطوراً هنيئاً، صحة وعافية.

. الحمد لله، أوّل فطور جيّد بعد اعتقالي.

. ستقيم هنا عدة أيام أبو محمد، ندردش معاً ونتسامر، الأمر بعيد عن التحقيق، فقط نريد سماع آرائك إن سمحت لنا بذلك.

قلت معترضاً:

. لا أشك أنّه تحقيق ولكن بطريقة جديدة.

. كما تحب ولكن كما تعلم وضعك الصحي: أنت رجل عندك ضغط وسكري وقلب فلا نريد أن نشكِّل أي ضغط عليك ونريدك مرتاحاً ومبسوطاً.

فعلاً كان شعوري هنا مختلفاً، وكأني انتقلت من الجحيم إلى الجنّة، شعرت

براحة وهدوء لذيذين، كنت في ضيق شديد وأصبحت في جوّ راقٍ أنعم بظلاله في أعماقي، وعلى قدر هذا المكان الهادئ الجميل الذي أرادوا لي أن أشربه بقلبي فتتغير أحوالي النفسية، كان شعوراً حاقداً يتنامى مقابل هذا الذي أرادوه، يا أولاد إبليس هذا النعيم الذي تتمتعون فيه هو على حساب هذا الأسير الذي تمنّون عليه، تتنعمون بكنوز بلاده وثرواتها.

ماذا يريدون بهذه الطريقة الجديدة؟! أعلم أن كل ما يريدونه في الزنازين هو أن يتلبس الأسير الشعور بالضعف والمهانة فيضعفون بذلك جبهته النفسية فيهاجمونه وهو في أضعف حالاته، ولكن هنا ماذا يريدون؟ أن أحنّ إلى الحياة الرغيدة وأن يستثيروا في داخلي الأسى على ما فاتني من ويلات فترات سجني عندهم فأعيد حساباتي قائلاً لنفسي:انظر لحياتك وانس غيرك ... معاذ الله يا شياطين، فأنا ابن قضية وصاحب رسالة ضحّيت من أجلها جلّ عمري فهل أنفصم عن ذاتي آخر عمري، بماذا يحلم هؤلاء؟!

هل تعتقد أن غزّة ستبقى إلى الأبد مصدر إزعاج لدولة إسرائيل ألا يفكرون: ماذا لو نفد صبر هذه الدولة القوية؟

قال كبيرهم في سهرة المساء بعد عشاءٍ فاخر قدّموا لي فيه ما لذّ وطاب من المأكولات والمشروبات.

قررت ألا أخفض له قولي وأن أرفع من وتيرة ردّي:

. ألم ينفذ صبركم وما تركتم سلاحاً محرّماً إلا واستخدمتموه في حروبكم على غزّة؟! دخلك كم مرّة نفد صبركم.

. لا أعرف سرّ هذه الروح العدائية أبو محمد؟

. نحن لا نعادي أحداً إلا إذا عادانا.

. وأنتم ألم تعادونا؟!

. البادئ أظلم..

. ونهاية هذا العدوان المتبادل؟

واضح أنه يجرّني إلى مربع التسوية والحلول السليمة وهو رجل مخابرات وليس رجل سياسية، وأنا لست من يقرّر في السياسة الفلسطينية فماذا يريد إذاً؟ ثم قالها بصراحة:

. لا يوجد في دماغك شيء اسمه سلام.

تغابيت وقلت:

. بالعكس ديننا دين السلام وتحيتنا الدائمة هي السلام.

. هذا بينكم، ماذا عن السلام بيننا؟!

. اسمع، أتريد سلاماً يقوم على إعادة الحقوق لأصحابها أم سلاماً يكرّس الاحتلال والظلم والطغيان؟

. السلام يتطلب تنازلات من الطرفين.

. جميل تنازلوا لكم حسب اتفاق اوسلو عن ثلاثة أرباع فلسطين، وبقيتم منذ

عشرين سنة تسلبون الربع الذي رضينا به.

. إذاً أنت توافق على سلام قائم على الانسحاب من الأراضي التي احتلت عام ٦٧م.

أردت أن أصفعه فقط فقلت بهدوء متصنع قاتل:

. بالطبع أوافق ولكن دون التنازل عن بقيّة فلسطين.

. ونحن أين تذهب بنا؟ للسمك في البحر؟

. أنتم تعودون من حيث أتيتم.

. أبو محمد أنت إنسان متطرّف.

. من يطالب بحقه فهو متطرّف عندكم، أنتم لستم متطرفين!!

تركوني عند منتصف اللّيل فلذت إلى فراشي في نوم عميق على سرير وفير، غرفة نوم على أحدث طراز، ألوان زاهية مموّجة، وأينما تولّ وجهك تجده متجلياً على إحدى المرايا المنتشرة في كل مكان، تناسق أذهلني من شدّة دقته وكأن ريشة فنان قد وضعت كل شيء مكانه لتضع مشهداً خلّاباً.

زارني زائر في اليوم التالي، جاسوس كبير، فرّ إلى دولة الاحتلال بعد أن انكشف أمره وأصبح على مرمى حجر من أن يقع في أيدي القوى الضاربة للانتفاضة، ومنذ ذلك الحين أي ما يزيد عن عشرين سنة لم تقع عيناي على خلقته، جاءوا به إليّ وهم يعرفون أنني أعرف خبر هذا الجاسوس، ماذا

يريدون من هذه الحركة؟

سلَّم بحرارة بينما كانت مشاعري اتجاهه باردة، تركونا وحدنا، أشبع أذني من ثرثرته، ادعى أنه ظُلم من شعبه ولم يكن أمامه سوى الهروب، طالما أنت مظلوم فما هي وظيفتك معي الآن حيث جاءت بك إليّ يد المخابرات، لم ألتق بك في الشارع صدفة، هم أتوا بك إلى هنا فأنت أداة لهم، ادعى أنه يريد مصلحتي، وأنّي ألعب في الوقت الضائع وأنه لابدّ من أنزل عن الشجرة التي صعدت عليها،..إذان فهو جاء لينزلني عن الشجرة، وكشف عن أنيابه عندما نفث سمَّه وقال:

. ملفّك عندهم مليان، الأدلة عندهم بعدد شعر رأسك، لديهم أدلّة على اتصالات وعلاقات وتمويل أنشطة كثيرة، ليس من مصلحتك أن تنكر كلَّ شيء، أنج بريشك واعترف عن شيء مما عندك، أنا والله مالي أية مصلحة، أظفرك عندي أفضل منهم ومن دولتهم، رمونا رمي الكلاب، اسمعها نصيحة من أخيك.

ما أحلاني وأنا أستمع إلى هذا السَّخيف، بهذا الأسلوب الحقير وسط هذه الأجواء المريحة يريد أن يستلَّ منّي شيئاً، خسئتَ يا عدوّ الله، صفعته قائلاً:

. أشكر لك نصيحتك، أنا أعرف بملفّي، ملفّي فاضي، وأنا في عمر مللت من زمن طويل هذه الحكايات.

مكثت خمسة أيام وكأني في رحلة على سطح القمر، اليوم الخامس أحاطوني بكرم فائض عن بقية الأيام، حاول كبيرهم بكل لطف وحنان أن يقنعني ولو

باعتراف بسيط، ظنَّ الرجل أنني سوف أستحي منهم بعد كل هذه الضيافة، وللحق أقول إنه لولا معرفتي بمكرهم ويقيني بأهدافهم الخبيثة لبحت بشيء مما عندي، قد يبوح غيري بشيء مما عنده إذا وضعوه في ظلّ هذه الأجواء، وفي حالة الاسترخاء هذه وقد يصلون إلى الحالة التي يسمّونها فرط المسبحة؟!

وتخلّلت الأيام الخمسة وجبات طعام مما تشتهيه النفس من مشاوي ومقالٍ وسلطات ومقبلات وكل أنواع المشروبات ما عدا الخمور، وكأنهم يحترمون تدّيني كمسلم لا يتناول الخمر، وجلسنا معاً جلسات تتناثر فيها النكات والقصص النادرة والأمثال الشعبية ونقاشات ثقافية عامة وكأن العداء الذي بيننا قد انتهى منذ زمن بعيد.

وكان السؤال الذي يطرق جدران دماغي: ماذا يريدون من هذه الشطحة؟

حمّلوني في ذات السيارة وألقوا بي في سجن مجدو، هذه القلعة المزروعة في الشمال الفلسطيني في منطقة خضراء في غاية الجمال والروعة، من جنّات ونعيم وظلال وعيون وجدت نفسي بين جدران وحديد، قلعة مجدو وكأنها قطعة واحدة زرعت في هذه الأرض الخصبة، قطعة كلها حديد، جدران عالية تعتليها سقوف من حديد مشبَّك، أبواب قاسية قاهرة وممرّات حديدية يعلو منظرها على كل شيء.

قصصت على ذوي الخبرات الطويلة ما جرى معي في هذا التحقيق، قال أحدهم:

. كيف غابت عنك يا أبا محمد، المكان بكل تأكيد تنتشر فيه الكاميرات، أنت كنت في استوديو يا سيدي، سيخرجون بفيلم وثائقي أو قل درامي عفوي، يقصقصون المشاهد التي يريدونها ويجمعون منها الفيلم، وبالطبع سيستخدم عندما يحققون مع من يعرفك ويريدون إدخال الشك في صدره، ومع كل مشهد يرددون أتعرف أبو محمد؟! انظر هذا الفيلم وانظر كيف تفعل قيادتكم؟

وقال الثاني:

. وما الذي يمنعهم من أن يبثّوا مقاطع عبر إعلامهم إذا أرادوا تشويه قادة فلسطينيين في ظروف مواتية.

وقال الثالث:

. وقد تكون محاولة وتجربة في التعامل مع المعتقل وهو في حالة استرخاء..

وشرح رابع، واجتهد خامس، أبو محمد بقي صامتاً ولم يقل شيئاً.

شبحة الموزة !!

في الأُسبوع الرابع تحركت قرون استشعار قلمي تبحث عن قصة جديدة فريدة لأسير كي تحرر شيئاً من ذكرياته، فألقت السمع لقصة طالب جامعي يدعى أحمد سداد، قصة يرتجف القلم ألماً وهو يخطها على الورق، وكان الأحرى أن تكتب بالدم على جلد بشري لما فيها من قسوة وفاشية، قصة تعيد أيام محاكم التفتيش، لنسمعها من فمه مباشرة :

.. أنزلوا جنودهم وكلابهم من سطح العمارة على شقته في الطابق الثامن، فزع من نومه ليرى أمامه الجنود والكلاب المسعورة تتهاوش عليه، أرخوا الحبل لأحدهم فقفز على صدره وأراد أن يفغر رأسه لولا إشارة منهم، عدة مرات يصل الكلب صدره ويلامس لهاثه الملتهب ليضرب وجهه المرتعب.

قبل دقائق كان هذا السكن الجامعي يغطّ في النوم بعد سهر طويل لقاطنيه الطلاب، لولا هذا الاختراق لصدى الصوت في هذا المكان الساكن بهدوئه ووقاره، كانت عملية إنزال خاصة اقتحموا بها الشقة، كسروا الشرفة والنوافذ واخترقوا الأبواب هم وكلابهم المدرّبة، لحظات من الرّعب المطلق، كانوا ذئاباً بشرية يوجّهون كلاباً مسعورة، ثم انهالوا عليه بالضرب المبرح على كل شبر في جسده طمعاً في تحقيق حالة الصدمة ، والهدف هو أن ينهار

أمامهم وتخور قواه المعنوية من أوّل جولة تحقيق، فيكشف لهم من اللحظة الأولى ما يجول في خلده ، وما يحمل من أشياء يبتغونها، ويتوهمون وجودها في مخازن صدره.

أحمد سدّاد طالب في جامعة القدس، في وجهه ابتسامة دائمة وقسمات حازمة تظهر عندما يعقد حاجبيه، طويل فيه بدانة يسيرة، دائماً متقد الفكر محاور شرس في شؤون الدّين والقضية الفلسطينية، متعلق بكل أعماقه بفلسطين ويعشق مسقط رأسه قرية جنوب مدينة نابلس، جاء به طلب العلم إلى ضواحي القدس حيث أبو ديس وجامعة القدس، تعّرف على فتاة تشاركه ذات الهموم وهو على وشك التخرّج لتكون شريكة حياته، فخطبها ونسج معها أحلاماً جميلة لتحقيق عشّ زوجية وحياة يلتقي في ظلالها العشاق في ظلال الحب الوارفة وسكن المودة والرحمة والرفاه والبنين والحياة السعيدة.

لم تأت الصدمة بأُكلها فألقوا على وجهه قناعهم الأسود، وقادوه معهم بعد أن أفرغوا غرفته الدراسية من كل محتوياتها: حاسوبه وجوّاله وكتبه وكراساته وكل ما احتوى هذا المعمل الإرهابي حسب ما صورته لهم عقولهم.

والواضح أنهم منذ لحظة اعتقاله الأولى قد أصدروا إذناً خاصاً بتعذيبه تعذيباً عسكرياً، هكذا يسمّونه وهذا يحتاج إلى قرار من جهات عليا، هذه الجهات تقرّ التعذيب بأقذر الأساليب وتسمّي نفسها محكمة عدل عليا!!

هناك فيما يعرف بمركز المسكوبية حيث تنتزع الاعترافات وتمارس ألاعيبهم الشنيعة بدأت مع أحمد جولات التحقيق العنيفة، وسمع الطالب الجامعي لغة غير معروفة في عالمه الأكاديمي، هنا لغة جديدة لا يعرفها إلا العالم

السفلي، هنا الانحطاط بكل معانيه اللفظية والمجازية، هنا الممارسات الوحشية التي لا وجود لها مثيل هذه الأيام إلا هنا خلف ستائر العتمة، وفي غياهب هذه الوحوش التي لا تعرف لغة البشر، لنترك أحمد يقصّ علينا ما جرى معه:

كان أسوأ ما رأيته منهم أنهم هدّدوني بالاغتصاب، بداية لم آخذ الأمر على محمل الجدّ، ولكنهم أخذوا يجمعون مركبات المشهد، هل أنا أتابع مشهداً من مشاهد سينما هوليود بأبشع صورها السوداء والمثيرة للاشمئزاز؟ هل هي الحالة المسحورة لتمثيل صور الجريمة المنحطّة على أوسع خيال إخراج سينمائي؟! انتبهت لنفسي لأجدها داخل المشهد، انتقلوا من حالة التهديد إلى أن يمارسوا الجريمة نفسها، أحضر أحدهم مسحوقاً من الفازلين وكان المحقق الرئيس يتفنّن في عبارات عهر يخجل المرء السويّ من ترك العنان لقلمه أن يعبّر عنها: سنفتح الأماكن الحسّاسة في جسمك، لن نترك فتحه إلا وسنختم عليها بـ..

وكان أحدهم يسحل بنطاله متأهباً لممارسة الجريمة، ثبتوا يديّ وقدميّ من قبل حارسين، حارس أمسك ذراعي بقبضته الحديدية وجلس الآخر على قدميّ بعد أن قلبوني على وجهي، كنت على يقين بأن نذالتهم لن تصل إلى نهاية المشهد، وكذلك فإن ما في صدري أعلى وأجلّ من جسدي وحياتي كلّها.

باءت مسرحيتهم بالفشل، لم تجد لها جمهوراً ولم تجزع لها أية خلية من خلايا جسدي، أحسست بالاشمئزاز وحركوا كل أحقادي عليهم وازددت إصراراً وتوهج التحدي في أعماقي وكأنه يوشك ليتحوّل ناراً تحرقهم وتحرق كل

مسرحياتهم، وكانوا لا ينفكون يؤكدون أن المسرحية بكل تفاصيلها مصوّرة وسننشرها على اليوتيوب بصورتك واسمك ليعرف القاصي والداني أنك...، وبالتأكيد لن نظهر الأمر على أنه في غرفة تحقيق عندنا، يا لها من فضيحة مدوية ونحن نشاهد الفيلم كغيرنا من الملايين التي سوف تشاهده!

وكانت دفعات إيماني بربي عالية، في ظل هذا المشهد البئيس كنت مفوضاً أمري إلى أرحم الراحمين، ولم تكن تعنيني كثيراً مكانتي عند الناس بقدر ما تعنيني مكانتي عند ربّ الناس، صدقاً كنت أسخر منهم ومن تفاهة أسلوبهم وخسَته في أعماقي، إنهم لا يدركون حلاوة الاستعلاء الإيماني التي كانت تغشاني وتملأ صدري.

صبيحة اليوم التالي لهذه المسرحية جرّوني والغطاء الأسود على عينيّ بعد أن كبلّوا يديّ وقدميّ بحديدهم، ومن خلال الجنازة الحديدية بما يُسمّى البوسطة، وبعد ساعتين من السير المتواصل وجدت نفسي في معتقل آخر من معاقل ممارسة الجريمة وعلى أوسع ما وصلت إليه خيالات الهوليود السوداء.

هناك في المدينة الساحلية الفلسطينية ذات التاريخ العريق المشرق، في تضاريس عسقلان غرزوا هذا السجن الذي شهد ويلات وعذابات كثيرة من الأسرى وغرف التحقيق القذرة، هنا يمارس ما يسمّونه التحقيق العسكري المنزوع من الشرف العسكري، وبدأت أيديهم تتناوشني بكل أشكال التعذيب، قال محقق برونزي بدين يظهر أنه من أصل روسي:

لدينا أوامر مباشرة بالتحقيق العسكري من رئيس الحكومة ورئيس جهاز

المخابرات الشاباك.

فكانت حفلات العذاب التي استمرت خمسة وثلاثين يوماً مليئة بكل صنوف العذاب، أعلم أن هذا النوع من التحقيق لا يستخدم إلا مع من لديهم عليه أدلّة على عمل عسكري خطر، وفي هذه الحالة يكونون على عجلة من أمرهم، يريدون كشف المخبوء بوقت قياسي كأنهم يريدون نزع فتيل قنبلة على وشك الانفجار.

إحدى الحفلات كانت تسمّى(الهزّ) ، وهي أن يقبض محقّق قويّ البنية على مجامع قميصي عند الكتفين فيجرّني بعنف إلى الأمام حتى إذا اصطكت كتفيّ بقبضتي يديه أرخاني فتنخلع الرقبة من مكانها، ثم يعيد الشدّ والرخي حتى أفقد الوعي وأتحول إلى خرقة واهية بين يديه، يلقي بي إلى الكرسي المربوط في الأرض فيربط يديّ المكبلتين أصلاً إلى الخلف بالكرسي، ويلقي بالغشاوة السوداء على عينيَّ، هذه يسمّونها جلسة الاستراحة وهي أشدّ وأنكد حيث كانوا يتفنّنون بتوجيه ضرباتهم على رأسي ورقبتي من حيث لا أتوقع، تأتيك الضربة فجأة فتهزّ أركان جسدك وروحك، كنت لا أتوقع من أية جهة يأتيني الضرب . وكان الضرب المتواصل أحياناً على الوجه حتى أفقد تركيزي وأغيب في تلافيف الألم بين ارتجاج الدماغ وطنين الأذن. كان الضرب والهزّ وتبادل الأدوار القذرة على هذا الجسد المتهالك أمامهم دون أن أقوى على صرخات الألم إلا ما يفر من أعماق صدري المجروح.

ومن حفلاتهم التي يستمتعون بها على جسدي كانت ما تسمى عندهم (شبحة الضفدع) حيث يجلسونني جلسة القرفصاء على رؤوس أصابع قدميّ ثم يدفعونني للسقوط دون أن أقوى على ذلك، أشعر بعضلات ساقيّ

وهي تتمزّق، أناشد من أعماقي من لا يغيب، لا أحد غيره ألتمس عونه وغوثه، أقولها من أعماق أعماقي: يا رب ليس لي سواك.

وكانت (شبحة الحائط) حيث يثبّتون كتفيَّ على الحائط مع تثبيت الساقين بين القيام والجلوس، تخدرَ قدماي وأشعر أنها قد انفصلت عن جسدي، عندئذ يتركونني لأسقط أرضاً وأفقد وعيي، ولأن طيفها يطرق أبواب قلبي، تحتضنني بروحها المرفرفة على روحي، أشعر أني بطل عليّ أن أصمد، على الأقل بطل أمام خطيبتي ،لا جبان خائر القوى مهزوم أمام هؤلاء.

تتوالى حفلات العذاب دون هوادة، لا يكلّون ولا يملّون وبين حفلة وحفلة يقيسون درجة عنادي، قال البدين البرونزي وهو يكزّ على أسنانه:

. ستموت عندنا أو تخرج بعاهة ترافقك طيلة حياتك.

رددت واثقاً:

. قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

. ربنا يقول: اعقلها وتوكّل .

ما شاء الله حتى هذا يستخدم النص الديني، "ما ظلّ على الخمّ إلا ممعوط الذنب. "

. حرام على شبابك، أنت في بداية عمرك ونحن مصممون، لدينا أدلّة قاطعة، قصتك مكشوفة. ماذا تخططون، وماذا نفذّتم من الخطة، وعددكم، وأسماؤكم، وعناوينكم، كل ذلك عندنا، المسبحة انفرطت عندنا فقط نريد لمّ حباتها من جديد، فقط نريد أن نغلق بعض الثغرات فتكتمل الصورة،

أصحابك اعترفوا بكل شيء.

قلت مستهجناً:

. ما دام كل شيء معروف لديكم فما الداعي لكل هذا العذاب!!

. فقط شفقة عليك، اعترافك يخفّف عنك الحكم وقد تخرج من هذه المعمعة دون عاهة أو إعاقة دائمة.

قلت متهكماً:

. هذه حلوة: شفقة عليك.

. مشكلتك أنك لا تأخذ كلامناعلى محمل الجِدّ، أنت لا تعرف مصداقية جهاز المخابرات الإسرائيلي، أنا أعدك كضابط مخابرات مسؤول، لن تخرج من هنا إلا بالاعتراف أو الإعاقة، تخرج على قدميك إلى السجن وأنت تعرف السجن لا يغلق أبوابه على أحد، في مفاوضات سلام في صفقة تبادل، أو لا سمح الله تخرج إلى السجن على عربة المعاقين، وعد شخصي مني، ونحن معنا تصريح من جهاز القضاء، ليست علينا أية مسؤولية سيّد أحمد.

قلت في نفسي مستلهما عون ربي: إنما ذلكم الشيطان يخوفّ أولياءه.

ظنَّ صمتي أني أفكر فيما طرحه عليّ، هبّ واقفاً:

. سأعطيك فرصة ذهبية، ثلاثة أيام في الزنزانة، فكّر على راحتك، سأصدر تعليماتي لتأخذ كل يوم حمّاماً ساخناً وألا يزعجوك بأي شيء، فقط فكّر في مستقبلك، صحتك وعافيتك وكيف تخرج من هذا النفق بأقلّ الخسائر.

مضت الأيام الثلاثة، وأنا أشحن نفسي لمعركة فاصلة، أربط على قلبي بكل مخزونه الإيماني وأستنهض عزائم رجولتي، أتخيّل نفسي مهزوماً مكسوراً مهيض الجناح وأنا داخل السجن والأسرى يرمقونني ويلقون بوجهي دون كلام : هذا الذي اعترف عن أصحابه، لم يكن رجلاً رغم حبسته السابقة، لم يتعلم، لم تنفعه مرارة السجن وعاد إليه، ثم أتخيّل نفسي عزيز النفس رافع الرأس معزّزاً مكرّماً: كان في التحقيق رجلاً، خرج منتصراً، هزمهم بإيمانه وإرادته القويّة، صورة مقابل صورة فاختر لنفسك يا أحمد، كنت أستجير بالله وأسأله أن يثبت قدمي وينصرني على القوم الكافرين وأطيل الوقوف مع هذه الرافعة الإيمانية العالية : أنت مولانا..

وكنت كثيراً ما أعرض الصورة المشرقة على خطيبتي، فأقرأ على صفحة وجهها تجليات الفخر والاعتزاز ببطلها أحمد، كم ستكون سعيدة بك! كم ستكون حياتنا عظيمة عندما تبنى على النصر على هؤلاء! وكم ستكون تعيسة عندما نسير في دروبها من نقطة الهزيمة؟!

صبيحة اليوم الرابع سحبوني برفق إلى حيث صاحب الوجه البرونزي، كان منتشياً، يحاول أن يكون متألقاً ومجسداً للحياة البهيجة، عندما يلتقي مع البؤساء أمثالي وكأنه يقول لي: قارن حياتك بحياتي، قرأت شكله جيداً يوم تبيض وجوه وتسودّ وجوه ، نظرت إليه في آخرته ونظرت إلى نفسي في آخرتي، وقلت: المهم من يضحك في الآخر، والعاقبة للمتقين.

. ها سيد أحمد، أنت خير من يستثمر هذه الفرصة الذهبيّة، ماذا قلت؟؟ لنغلق هذا الملف وتخرج من هنا بأخفّ الأضرار، تفضل لتحكي كل الحكاية،

كلّي آذان صاغية لك، أنا قارب النجاة، تكلّم سيد أحمد.

. ماذا أتكلّم؟ أنتم أمركم عجيب، أنا طالب جامعي وليس لديّ ما تتوهمون.

تمعّر وجهه غضباً، ضرب بكفي يديه الطاولة ونادى على أحد حراسه، سبّ ولعن:

. يا ابن الست وستين، سنرى من البطل .. شبحة الموزة.

أخذوا يسحبون رأسي من الخلف باتجاه قدميّ فيتقوّس الظهر مشكلاً ما يشبه الموزة، ثم أخذ يضرب على ظهري بقبضة يده بكل ما أوتي من قوة، لم أتمالك نفسي حتى ملأت المكان صراخاً، كان الألم في فقرات الظهر يتعاظم ويدفعني دفعاً كي أفقد وعيي، وإذا عاد لي وعيي عادوا دون توقف، في المرة العاشرة زادوا من درجة تقوّس ظهري فسمعت فقرة من فقرات ظهري وهي تكسر، فأوقفوا التعذيب وجروني إلى الزنزانة جرّاً.

مكثت أياماً وأنا لا أقوى على تحريك أي عضو من أعضاء جسدي، كانت كلها موصولة بمركز الألم الذي يتوسط العمود الفقري حيث كان الكسر.

في اليوم الأربعين للتحقيق حملوني في سيارة بوسطة خاصة، حافلة صغيرة أعدّت خصيصاً لنقل الأسرى من ذوي الحالات الخاصة أدخلوني مركز تحقيق (بتاح تكفا) لأجد رجلاً مبتسماً يحاول رسم علامات الهدوء والسماحة والرقيّ الحضاري لرجل العالم الحرّ، ما أمهرهم بالتمثيل! يقومون بكل الأدوار، ماذا عند هذا الرجل الوسيم:

. جئنا بك هنا لنساعدك، فقط كلمة واحدة كفيلة بإدخالك أرقى المشافي

عندنا، وعلاجك بأحسن علاج موجود في دولة إسرائيل، ستعود شاباً تتمتع بعافيتك وصحتك ونضارة شبابك، كلمة واحدة تنقلك من حالة الإعاقة الدائمة إلى الحالة التي كنت عليها، إذا تحوّلت للسجن ولم تجد العلاج السريع؟؟ بالفعل هذا عرض مُغرٍ، إذا دخلت السجن راحت عليك، هذه آخر فرصة، صدقني لن ينفعك أحدٍ وأنت على هذه الحالة، احسبها جيداً، ستمكث في السجن ما لا يقل عن عشر سنوات حسب الاعترافات التي عليك، وعندنا قانون (تامير) تعرفه جيداً لن ترحمك محاكمنا، تصور نفسك عندما تخرج من السجن بظهر مكسور بعد عشر سنوات من الإهمال الطبي في السجون، ستخرج كخرقة بالية لا في العير ولا في النفير، عدا عن الآلام التي ستكابدها في هذه الحبسة الطويلة.

كان الغضب يشعل حريقاً هائلاً في صدري، كنت أفكر في جملة مقتضبة أصفعه بها وهو يلقي عليّ خطبة الشيطان المكررة التي مللتها حتى النخاع:

. وتتبجح بممارستكم للإهمال الطبي على من يقع في أسركم، من أي صنف من البشر أنتم؟

يئسوا مني، أحالوني للسجن ثم للمحكمة التي شرعت بمحاكمتي.

وكانت محاولة يائسة رغم أنهم لا ييأسون وهذه هي طبيعتهم الصلفة، اعتقلوا خطيبتي وعلى متن أقرب بوسطة سحبوني لأجد صاحب الوجه البرونزي يعرض عليّ عرضاً ممجوجاً:

. خطيبتك وقعت بين أيدينا، تنتظر حكماً طويلاً، بعد خروجك من السجن

عندما تنهي فترة حكمك الطويلة ستضطر لانتظارها طويلاً، عشر سنوات مثلاً.

قلت والغضب يعلو في صدري ولا يترك لأية شاردة أو واردة من التريّث ولو قليلاً:

. سأنتظرها ولو حكمتموها مؤبداً.

. ولكن عندي حلّ أسهل، أليس القائل لهذه المقولة ما خيّرتُ بين أمرين إلا وأخذت أيسرهما هو نبيكم؟؟ كلمة منك حبيبي تنجو وتنجو خطيبتك، تخدمنا وتخدم نفسك؟

بقوة وحزم وشعور بالانتصار يتنامى في صدري قلت:

. الأيسر عندي هو أن أبقى مع ربي، متمسكاً بحقّي، لا أنحني لرجسكم مهما تعاظم شركم، ومهما تفننتم في إجرامكم، هو وحده حسبي ونعم الوكيل.

نفض يديه وخرج مسرعا كأنما قد لدغته أفعى جاءته من الربع الخالي..

صديق عمّي أعماني !!

واصل قلمي في الأسبوع الخامس هوايته في صيد الحكايات من الأقفاص الفولاذية، وأصر على أداء واجبه في تحري قصة أخرى من النسيان، ولم يكن الأمر عسيرا فسرعان ما رسم اللوحة على هيئة سمكة وقعت في فم ثعلب من ثعالب الأسر التي نسميها العصافير..

أرسل لي صديق من السجن رسالة تحذيرية ضمنها اثنتي عشرة نقطة تفضح أساليب العصافير في السجون، عدّد كل أنواعهم وأشكالهم وكل تمثيل يتفتّق عن خيالهم، الأُمور واضحة وبيّنة، قد يأتيك العصفور في الزنزانة أو في البوسطة أو السجن، قد يكون العصافير مجموعة أسرى في غرفة أو قسم كامل من عدة غرف، وهناك أقسام لهم في عسقلان والسبع ومجدو وعوفر، يتقنون التمثيل ليس كأنهم الأسرى وإنما هم أسرى بكل تفاصيل حياتهم، سرّك لا يوجد ما يدعو لكشف ستره لأيّ كان، لا داعي للفشخرة والتظاهر بالرجولة والبطولة والوطنية، إياك أنتقع ضحية البطولة الكاذبة، وإياك أن تدافع عن ذاتك بكشف دورك النضالي، في السجن ادفن نفسك في تراب

الإخلاص والصدقة الخفية.

بعد شهرين من هذه المضادات الحيوية تم اعتقالي، ومن التحقيق كما وصف لي صديقي إلى قسم العصافير في سجن السّبع، عرفتهم بسهولة وخرجت سالماً كما دخلت، حمدت الله على رسالة صديقي، وقلت في نفسي لابدَّ من نشر هذه الوصايا لتصل لكلّ الناس حتى يحذروا كما حذرت، وحتى لا يقعوا كما وقع كثيرون في شِباك العصافير.

ثم نقلوني إلى السجن، هنا وجدت نفسي، العلاقات الاجتماعية الطيبة، والإخاء على أصوله، والثقافة، والوعي، والنقاشات الجادة، والعمل التنظيمي، وقوة الجسم الاعتقالي في مواجهة إدارة السجن وقمعها، فعلاً هنا إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمّى.

تعرّفت على أحد الرجال الكبار في السن.. في العقد السادس، وسيماً وقوراً، قسماته هادئة، وجهه منير ومريح للنفس، فاجأني أنه كان صديقاً لعمّ لي، وكانت له ذكريات مع عمّي، كانا معاً في لبنان ، تدرّبا معاً في القواعد العسكرية نفسها في سبعينيات القرن الماضي أيام عزّ الثورة الفلسطينية في لبنان، حدّثني عن أكلاته المفضلة وعن هواياته ومغامراته ورحلاته، يعرف ومُطَّلع على كل تفاصيل حياة عمّي الذي يشكل لنا في العائلة مصدر فخر واعتزاز، وحدثني عن تفاصيل دقيقة لا يعرفها إلا إذا كان مقرّباً جداً من عمّي، واضح أنهما كانا صديقين حميمين وكان لا يُخفى أيّ منهما سرّه عن الآخر، ويعرف علاقات عمّي وترقياته في السلّم التنظيمي منذ انتمائه إلى حين وقوعه في الأسر وتحرّره في صفقة تبادل ١٩٨٥م وما بعد ذلك.

ومكثنا نتفاعل في أحاديث مُشوّقة كان محورها عمّي وتاريخه الحافل عدة أيام، كنت منصتاً أشعر بالفخر والارتواء وأنا أسمع هذا الحديث المرتفع جداً في عالم الثورة والثوار كنت أسير مع هذا الرجل العظيم متباهياً فخوراً أمام من هم من جيلي من الأسرى في هذا القسم، وكأني صقر أحلق عالياً مع الصقور بينما البقية الباقية طيور تحلق في سماء أدنى من سمائنا بكثير.

وكان لابدّ لي من الحديث عن نفسي، بُحت له بكل تفاصيل حياتي وكشفت أسراري متألقاً في سمائنا العالية، وكان صديق عمّي الحميم يبتسم ويشاركني الزهو والتشجيع على المزيد من فعاليات هذا الجهاد العظيم على هذه الأرض المباركة، وكان يسأل عن أسماء من شاركوا في هذه الفعاليات وأجيبه بكل صراحة، إذا قامت الثقة رُفعت الكلفة.

في اليوم التالي نادوا على اسمي مع النقليات، وكان نقلي من السجن إلى مركز التحقيق، فاجأوني بأني كنت في قسم العصافير، لم أصدّق أنكرت بقوة، سمّعوني تسجيلاً صوتياً واضحاً بكل ما بحت به إلى صديق عمّي!!

شَبّاك رقم (١٠)

في الأُسبوع السادس تابع قلمي مشواره مع هذه القصة حيث سافر مع صاحب القصة إلى الحدود الأُردنية ليرى ويكتب قبساً يسيراً ممّا يجري هناك:

كنت أودّ لو تسابق السيارة الريح في هبوطها إلى جسر الأردن، طريق الشوق والحنين ورؤية الأحبّة شرقيّ النهر، منذ احتلال الضفة الغربية سنة سبع وستين وهذا الجسر يقف فاصلاً بين شطري الشعب الفلسطيني، الشطر المرابط والشطر المهاجر، كان الفلسطينيون يتناوبون الزيارات، حقائبهم محمّلة بالهدايا وقلوبهم محمّلة بمشاعر ملتهبة وإشعاعات وشائج اجتماعية لا حدود لها، وهناك كمٌّ هائل من المحرومين من لقاء الأحبة، يمنعون من السّفر لأسباب لا يعلمها إلا الله ثم رجل الأمن الملفّع بهوسه والذي لا ينظر إلا من خرم إبرة.

كانت آخر مرة وطأت فيها قدماي ثرى الأردن قبل حوالي سبعة وعشرين عاماً، فقد أرجعتني سلطات الاحتلال ما يزيد عن عشرين مرّة ولكل مرّة قصة، اليوم أسافر بعد أن انتزعت قراراً مما يُدعي المحكمة العليا الإسرائيلية

مفاده السماح لي بالسّفر لمدة ثمان وأربعين ساعة فقط، وقد رفضوا الطلب سبع مرات، كل مرّة تناقش المحكمة أمر سفري وتصدر قرارها بالرفض، المرّة قبل الأخيرة وافقوا على السفر لمدة ست ساعات، ماذا عساي أن أفعل في ست ساعات، زيارات خاطفة للأقارب المقربين من الدرجة الأولى، لا تكفي لكل واحد منهم ربع ساعة، زوجة وبنتان وأخ وأختان وأعمام و أخوال وست ساعات؟! استأنفت على قرارهم فحصلت على إنجاز عظيم.. ثمان وأربعين ساعة.

كانت السَّيارة تهدّئ من روعها على المنعطفات الخطرة، تدور يميناً وشمالاً وعندما تنبسط الطريق تهرول مسرعة، المنحدرات خطرة والجبال صفراء جرداء ولكنها تشكل تضاريس جميلة حفر فيها الزمن أخاديده، وانبسطت الطريق مرحّبة بغورها الفسيح، اندفعت السيارة بكل عنفوانها وتهلل وجه السائق مبتهجاً من خلاصه من المنحدرات الخطرة، عادة سائقو هذه السيارات لديهم فراسة صقلتها الأيام تجيد قراءة الوجوه فاجأني بسؤال رماه في وجهي:

. وكأنك أُستاذ أوّل مرة تسافر إلى عمان؟!

ابتسمت وأجبت:

. كانت آخر مرّة في العام ١٩٨٧م.

. يا سلام، أنت الآن لا تعرف عمان إذاً!!

. ولا أريد أن أعرفها، فقط أريد زيارة أقاربي.

. حسناً ولم كل هذا الانقطاع؟!

. ماذا تتوقع؟ المنع من السفر بالتأكيد.

. ولماذا منعوك؟ (وبدا السؤال مُلَغَّماً)

. بسبب حبسة خفيفة.

. كم كانت؟

. خمسة عشر عاماً

. وهذه خفيفة؟!

. بالنسبة لغيرها خفيفة.

حدّق في سحنتي قليلاً ثم قال:

. أنا أعرفك جيّداً، وأعرف إخوتك، أنت موظف في وزارة المواصلات.

. صحيح، وأنا أعرفك أيضاً، أنت كنت في صفي في المدرسة الهاشمية، أي سنة كنتفي التوجيهي؟

سنة١٩٧٨.

. أنت سعيد الخطيب، صحيح؟!

. يا سلام ربّ صدفة خير من ألف ميعاد.

واحلوَّ الحوار، أصبح دافئاً وحميماً وصريحاً، اخترقنا مدينة أريحا وانسبنا

شرقاً إلى حيث الاستراحة، أراد أن يواسيني ويهيئني نفسياً لرجوع جديد فقال بأسى:

. يعيدون كثيراً من الشباب لأسباب واهية جداً حتى إن ممن أعادوهم أُناساً لم يدخلوا السجون ولا توجد عليهم أيّة شائبة.

قلت في نفسي: العمل الوطني صار من الشوائب التي تعلق بصاحبه، سألت وكأني لا أعرف:

. لِم يعيدون هؤلاء الذين لا تشوبهم شائبة؟!

. يطمعون أن يكونوا لقمة سائغة لهم..

. على الحساب أُستاذ، أنت أسير خمسة عشر عاماً، التقطها على الطاير، هؤلاء أصحاب الملفات النَّظيفة لهم مصالح حيوية مرتبطة بالسّفر، صاحب تجارة، طالب جامعي في سنته الأخيرة للتخرج، رحلة علاج له أو لأمه أو لابنه أو ابنته، نعم يستغلّون حاجات إنسانية، والكلمة المعروفة: ساعدنا نساعدك، كم جنّد لهم عملاء هذا الجسر اللَّعين!!

أصحاب الملفات النظيفة! لا يسلمون من شرّهم، ونحن أصحاب الملفات الوسخة؟! أذكر عندما عرضوا علي وأنا أسير لي خبرة بألاعيبهم، أرجعوني عدة مرات وهم يعلمون أني لم أر أبنائي منذ عقد ونصف ثم عرضوا عليّ هذه الصفقة الخطيرة.. ساعدنا نساعدك.. كل من يسقط في وحلهم يعتقد في البداية أنه بإمكانه أن يخدعهم، يسافر ويحقق ما يريد ثم يتنكّر لما اتفقن معهم لكنهم أذكى من ذلك، لا يبلّغونه مراده حتى يبلغوا مرادهم ويغرقوه

حتى النخاع في مستنقعهم الآسن.

انتقلنا من الاستراحة الفلسطينية حيث لا يوجد فيها سوى الانتظار كي لا يشكل المسافرون ضغطاً على الإسرائيليين، استراحتنا تمتص الضغط وهم يمارسون إجراءاتهم على أقل من مهلهم، دخلت القاعة الإسرائيلية التي تمتاز بأنها مكيّفة ونظيفة جداً، وكأنهم يقصدون إبراز الفارق الحضاري بيننا وبينهم من حيث الشكل والخدمات العامة، أما بالفعل فعلى نافذة فحص جوازات السفر قالوا لي بفظاظة: اجلس على الكراسي وهم يأتون إليك، سألت، وكأني أوّل مرّة اسمع هذه الكلمة:

. ما الأمر؟ كم من الوقت أجلس هناك؟

. ما بعرف، اقعد هناك.

حوقلت وجلست مستذكراً كم مرّة قيلت لي هذه المرة الكلمة اللّعينة، وكم بقيت جالساً على المقعد ذاته ما يزيد عن عشر ساعات، أنتظر حتى يسافر كل الناس ثم يأتي عمّال النظافة ثم إذا انتصف الليل جاءني وجه سوء بكلمة ناشفة، خذ جوازك وارجع .

إحدى المرّات خرج لي رجل مخابرات لا يريد أن يضيّع وقته معي وكأنه يتكرّم علي إذ سمح لنفسه بالحديث معي، قال منتشياً ومتعالياً:

. اسمع أنت لا يمكن أن نسمح لك بالسّفر في أي حال من الأحوال، إلا إذا اشتغلت معنا.

مرة ثانية الكلمات نفسها سوى الاستثناء.. إلا إذاكان سفراً دون عودة.. ومرة ثالثة قال مهدداً ومتوعداً: إذا عدت للجسر مرة ثانية فلا تلم إلا نفسك.

اختلف الأمر هذه المرّة ففي جيبي قرار من محكمتهم العليا، وهم حسب معرفتي بهم يحترمون قرار هذه المحكمة، ولكن كيف يكون هذا الاحترام؟

مرّت ساعة واحدة فقط ولكنها كانت طويلة جداً كشهر أو تزيد.أطلّ أحدهم وهو يحمل جواز سفري، رفع عقيرته باسمي، انتفضت وأسرعت إليه، ابتسم ابتسامة صفراء بنصف وجهه وهتف:

. تعرف أنه مسموح لك بالسفر لمدة ثماني وأربعين ساعة فقط؟!

. نعم أعرف، قرار المحكمة في جيبي.

. تفضّل، وأشار لي بالمرور إلى حيث المخرج..

طرت من الفرح رغم أن هناك طبلاً من القلق يضرب في صدري، يحترمون محاكمهم ولهم طرق خاصة لهذا الاحترام..

استوت الحافلة على النهر، متعت عينيّ برؤيته ورؤية التطورات الهائلة ما بين ١٩٨٧م وسنة ٢٠١٤م كان جسراً خشبياً تتأرجح عليه الحافلة ونشعر بروعة قطعه النهر، اليوم شارع عريض مسفلت، ترى المياه الخضراء المحاطة بالبوص بعيداً تحت الجسر، وقرأت شاخصة: أهلا بكم في المملكة الأردنية الهاشمية، واجتاحني الفرح من كل جانب، اليوم سأعانق ثرى الأردن الحبيب، سأُعانق كل من على ثراها من الأحبة، سأحتضن ابنتيّ اللتين كانتا طفلتين واليوم هما فتاتان إحداهما أطول مني، ثمانٍ وأربعون

ساعة تنتظرني ستكون أجمل ساعات عمري وأسعدها.

ويل لنا من هذه النوافذ، أتشاءم عندما أقف أمام نافذة حديدية، بوجه متصرّم ونبرات حادّة وكأني مطلوب للعدالة على قضية تمسّ أمن الدولة سلقني بلسانه:

. على شبّاك عشرة.

تحوّلت إلى هذا الشباك وقدماي لا تكادان تحملانني، احمرّت عيناي واصفرّ وجهي ومن خلف هذا الشباك يطلب مني الرجوع من حيث أتيت، سألت لماذا؟ فأجاب دون عناء وكأنه يعمل فقط باتجاه واحد:

. لا أعرف لماذا، ولا تسأل مرّة ثانية، وما عليك إلا أن ترجع،

. هل تتكرّم عليّ بمقابلة مسؤول هنا.

. اجلس حتى تسمع اسمك.

شعرت وكأني نكرة، هباءة لا وزن لي، أنا هنا لست إنساناً، فقط مجرّد ربوت وهم يقبضون على لوحة التوجيه، لا أحمل في قلبي وطناً ولست مواطناً لأي وطن، لا قيمة لأيّ شيء يجمعني بهذا الجالس خلف شباك عشرة، لا تجمعنا عروبة ولا مروءة ولا رجولة ولا خُلُق ولا دين، أنا مجرّد شيء يريد أن يمرّ وهم لا يريدون لهذا الشيء أن يدخل بلادهم ولا شأن لهم بأنه امتداد لمواطنين عندهم ومن حقهم وحقه أن يمارسوا إنسانيتهم، أن تكون لهم مشاعر ويمارسوا معاً مشاعر مشتركة من نسب أو رحم، أبوّة ضائعة غابت تحت ظلم احتلال غاشم، غبت عن الوجود وغاب الوجود عني وأنا

أنتظر ، أخذوني إلى المسؤول، رجل مثل عمري ولكن له وزن وليس لي وزن، له أن ينظر إلى شاشة الحاسوب ويقرأ تقريراً وقراراً وأنا لست سوى متلقٍ يقع عليه السّوط ، قال مختصراً وقاطعاً عليَّ طريق النقاش كصاحب خبرة في حالات كثيرة مثل حالتي:

. نحن هنا على الحدود ننفذ التعليمات الموجودة على الكمبيوتر(مشدداً على الكاف والميم) لا نناقشها ولا شأن لنا في حيثياتها، ممنوع الدخول في نقاش مع أي شخص ممنوع من السّفر، أنت واضح أنك واعٍ ومثقف ولولا ذلك ما جلست معك، أعتقد أنك ستتفهم ما قلته لك.

وكأن المثقف عندهم أرنب، يجيد الطّاعة الذليلة، يحملني دالّة أنه جلس معي، يا للسّخف، قلت محاولا استرداد شيء من كرامتي:

. أعداؤنا سمحوا لي بالسّفر ثمان وأربعين ساعة لدواعي إنسانية وهو أنني سأحضر عرس ابنتي، اسمحوا لي باثنتي عشرة ساعة، أحضر الليلة هذا العرس وأكون عندك صباحاً.

. قلت لك دخولك الأردن مستحيل.

. هل لك أن تطلعني على السبب؟

. غير ممكن.

بلغ غضبي كل مبلغ وأصبح الانفجار وشيكاً، وأحببت أن أحرق أعصابه وأقض مضجع مشاعره المخدّرة.

. هل من المعقول أن يسمح لي أولاد عمنا بالسّفر بينما أشقاؤنا لا يسمحون؟!

تمعّر وجهه غضباً وانتصب هادراً:

. تقارن بيننا وبين اليهود، لولا سنّك لرأيت.

وأشار إلى شرطة تنادوا من كل جانب ليأخذوا بي ويدفعونني أمامهم، عندها صرخت:

. كيف تعرف النوم بعد أن تمارس هذا الظلم، أين ضمائركم؟ لو كان لكم ضمائر حيّة لما سمحتم لأنفسكم أن تكونوا مجرّد أدوات.

تضاعفت قوى دفعهم حتى وجدت نفسي على باب الحافلة، أدخلوني فيها دفعاً، أغلق سائقها الباب بحركة اعتيادية على مثل هذه الحالات، وعادت الحافلة أدراجها براكب واحد وكأنه رجس من عمل الشيطان يريدون التخلص منه سريعاً قبل أن يلوّث أجواءهم.

عدت مكروباً منكوباً، وكانت بناتي يتصلن بي ويسألن: أين وصلت؟ كيف أقول لهن: أنا على مشارف أريحا عائداً بعد أن قلت قبل ثلاث ساعات: لقد تجاوزت أريحا وتجاوزت الجسر.

وضاع عليّ عمل أكثر من عشر سنوات على محكمة عدلهم العليا! استغرقتني لانتزاع قرارهم الأخير، لعبوا تبادل الأدوار، وأحجار الشطرنج جاهزة..

أنا ضيف عندكم؟!

وكان لقلمي في أُسبوعه السابع أن يطرق جدران خزان أسود لقصة محاولة اصطياد في مائهم الآسن العكر:

رنّ الهاتف على صوت شؤم لا يبشّر بخير، كان صوت ضابط المخابرات الإسرائيلي يطلب مقابلتي ويهدّد ويتوعّد إن لم أُلبِّ الطلب، لم يمض على إطلاق سراحي من آخر حبسة سوى بضع أيام، ماذا يريد مني إذاً؟ حسبتها جيداً، قلت: بالتأكيد لن يعتقلني من جديد، لو أراد ذلك لما أطلق سراحي، كنت معتقلاً إدارياً وهذا يعني أنه كان بإمكانه أن يعطيني تمديداً جديداً.

شجعني ذلك لتلبية الطلب، تفتيش دقيق لدرجة الهوس قام به الحراس، يقلّبون الملابس قطعة قطعة والحذاء والجوارب، يمرّرون الفاحص الإلكتروني بكل دقة على كل تفاصيل جسدك ولباسك، يستغرق هذا الفحص قرابة النصف ساعة، وجدت نفسي بعد ذلك أسير خلف الحارس إلى حيث غرفة صاحب الشؤم، تدخل فلا تجده، تنتظره ساعة، ساعتين، ثلاثاً، لابدّ من وضعك في مخرطة نفسيّة لتضرب مشاعرك وأفكارك في كل اتجاه،

حتى إذا بلغ بك الإنهاك كل مبلغ شرّف صاحب السيادة والحضارة للقاء هذا الشبيه بالبشر والذي هو أنا.

دخل عليَّ مسلّماً مرحبّاً، تمثيلية كاذبة يقدّمون طقوسها بشكل بارد ممجوج، بادرته بالاحتجاج:

. لماذا تعتقدون أن وقتنا لا قيمة له؟

أجاب ببرود:

. أنا أعتذر، كيف حالك تمام؟

. الحمد لله..

. سأختصر عليك الوقت، أنت وقعت هذه المرّة وقعة كبيرة، ارتكبت خطأ فادحاً، لن نسمّي عليك، لدينا أدلّة قاطعة على ما نقول، تعرف مهنيّتنا العالية، ملفّك كبير هذه المرّة بعد خمس سنوات من الاعتقال نفتح هذا الملف.

. وما هو هذا الخطأ الفادح الذي تتحدّث عنه؟

. أنا مستعد لسماعه منك أنت تعلمه جيداً؟

ما هي الروح الشريرة التي يتكدّس فيها كل عفن التاريخ اليهودي النكد، صهيوني حاقد لا يعرف سوى لغة الشرّ والانتقام، على ماذا تنطوي نفسه هذه المرّة؟ شعرت بأنّي أكاد أختنق، ماذا يعني إعادتي للسجن من جديد بعد أن عددت أيامه المريرة، كان سبباً في حبستي الأخيرة التي استمرت سنتين، واليوم يعدني بخمس سنوات قبل فتح الملف، أشعر بأنّي موشك على الانفجار، تبسّم

ابتسامة خبيثة وزعق:

. أتركك تفكر في الموضوع، فكّر بمصلحتك وحياتك التي تضيع خلف القضبان، اهدأ وفكّر بعمق.

صفق الباب وتركني وحدي، صمّمت وعزمت على ألا أفكّر بما يريد، قلت: أمري محسوم لم أفعل شيئاً وليفعل ما يحلو له، ليركب أعلى ما عنده، مالك إلا أن تستعين بالله فهو وحده القادر على كل شيء، الشيطان يخوّف أولياءه، لن أخاف وعيدهم والله حسبي ونعم الوكيل، وأخذت أشحن قلبي بكل المضادات الحيوية الإيمانية.

عاد بعد حوالي ساعتين ليردّد الكلام نفسه ، لا يملّون ولا يكلون، يسيرون على طريقة البرمجة للاوعي الذي أمامهم وعلى قاعدة: أن تكرار ما يريدون على مسامع ضحيَّتهم حتى يصبح كأنه حقيقة، كان كلامهم يدور على عبارة بعد خمس سنوات نفتح ملفك يترنّمون بها ويشدّدون على بعض حروفها، يعلمون وقعها الصاعق على أسير سابق ذاق الأمرّين وهو يزحزح سنوات السجن، يضعونك في جوّ نفسي يجيدون صناعته ويحيطونك به من كل جانب حتى يبدو لك أنه لا مفر إلا أن تستجيب لهم.

خرج وجاءت واحدة كانت ضمن طاقم التحقيق تدّعي أنها خبيرة في شأن التنظيمات الفلسطينية، تناهز الخمسين، بدينة سمراء، مترهلة الوجه، جاءت تتحدّث بيقين وثقة وكأنه قدر نازلٌ لا مفرَّ منه:

. أنصحك، هذه المرّة لا مفرَّ لك، وقعت وقعة ساخنة، لن يفتحوا ملفك قبل

خمس سنوات، اعتقال إداري طويل.

قلت بضيق وغضب:

. على ماذا؟ ما هذا الذي تتحدثون عنه؟ تنسجون من خيالات أوهامكم كما يحلو لكم.

قاطعتني بكلمات تبدو حازمة:

. هذا كلام لن ينفعك، نحن كما تعلم لا نصدّقك، فقط تصدّق ما لدينا من تقارير.

رددت بنبرة أشدّ حزماً:

. أتحداكم إن كان عندكم شيء، أنا خرجت من السجن منذ أيام ولم أخرج من دائرة البيت ومن يأتِ يأتِ لتهنئتي.

. لدينا دليل قاطع على عمل خطير، نقطة آخر السّطر.

. أتحداكم، أيّ عمل هذا؟!

. كل خلية في جسمك شاهدة على ما قمت به، أنت جرّبتنا من قبل، إن لم تفصح يتم تحويلك للاعتقال الإداري ويا دار ما دخلك شر.

تركني وحدي وبدأ الليل يحطّ أثقاله، نهار كامل وهم يكررون الأُسطوانة نفسها ، انفجرت كل ينابيع الذكريات المريرة في حساباتي السابقة، شبح الاعتقال الإداري يرمي سواده في أعماق صدري، المرّة السابقة هدَّدوني

بسنتين اعتقالاً وأتموهن سنتين كاملتين ، واليوم يهدّدوني بخمس سنوات، يفعلونها فإجرامهم لا حدود له، ولكن ما العمل؟ هل أعترف بشيء لم أفعله؟! مستحيل، وجهت قلبي لربي: يا رب ليس لها من دونك، اللهم إني أجعلك في نحورهم وأعوذ بك من شرورهم.

صلّيت المغرب والعشاء ثم جاءني الوجه الأول يدَّعي أنه مسؤول المنطقة، هيأت نفسي لسماع الأسطوانة ذاتها، قال بنبرة هامسة:

. عندي لك حلّ، هذا الحلّ يخلصك من الاعتقال الإداري وملف الخمس سنوات حسب تقديرات المستشار القانوني لدينا، تخلص من حياة السجون، وتخلص من ملاحقات الأجهزة الأمنية الفلسطينية، نحن نعلم أنك كنت عند الوقائي قبل أيام. حياتك أصبحت متعبة، يوم في البيت وعشرة في السجن، إذا خلصت منا لا تخلص من الذين عندكم لو إني مكانك لعرضت حلاً يريحك ويريحنا.

سألت بخبث مدّعياً أني منسجم مع هذه الحلول:

. وما هو هذا الحل؟ ليتني أرتاح..

. صفقة، كما فعلت مع كثيرين غيرك.

. صفقة؟ على ماذا؟

. نوقعّ اتفاقاً بيننا، سفر بلا عودة..

زلزلت أركاني وارتعدت فرائصي، مسكت أعصابي وقلت:

. وهل أنا في هذا البلد ضيف عندكم؟

. فكّر في الموضوع، اعتقال إداري خمس سنوات حدّه الأدنى أو سفر ترتاح فيه، لابدّ من صفقة وإنهاء الأمر.

. ما رأيك لو تسافر أنت بلا عودة، ارحل لبلدك الأصلي نحن هنا السكان الأصليون في هذا البلد.

. أنت بهذا تضيّع فرصة ذهبية.

. قلت بأني كنت عند الوقائي قبل أيام، هذا هو الأمر الخطير من الصباح الباكر وأنتم تلوّحون بأمر خطير، عرفت هذا الخطير، أهلا أهلا، الوقائي أخدوني بخصوص الشاب المطارد الذي بات عندي، صحيح؟!

هتف بعد أن فرد وجهه:

. ها قد اعترفت، تعرف عقوبة إيواء مطارد.

بالغت في ضحكة عالية وقلت:

. الحمد لله رب العالمين، جاء الحق وزهق الباطل، قل لي بالله عليك: مطارد لمن؟ أردتم أن تضبعوني بهذه القصة، أفرج عنه من عندكم، من سجن النقب؟ وصل رام الله متأخراً في طريقه إلى نابلس فبات عندي تلك الليلة، فهل هو مطلوب؟!

هبّ واقفاً كأنه يعلن الانسحاب والهزيمة، قال وهو يحاول التمثيل بأنه واثق بكلامه:

. الموضوع أبعد من هذه القصة.

هاجمته متهكماً:

. طلعت قصة فارغة، فستق فاضي، وقال عاملين فيها إداري وإبعاد.

. لعلمك نحن لا نتراجع، قادرون على تطريز تقرير يرميك في السجن الفترة التي نريدها، دخلك المحكمة عندنا تنصاع لمن لنا أم لك؟

. وتتحدثون عن قضاء عادل ونزيه، اعترافك هذا أن المحكمة تنصاع لكم اعتراف عظيم.

غاب عن وجهي ساعة أو ساعتين، عاد عابساً والساعة تقترب من منتصف الليل وقد بلغ بي الملل والإرهاق كلَّ مبلغ، ست عشرة ساعة وهم في الكلام نفسه كأنهم تسجيل آلي لا يتوقّف، وهم يرسمون بذلك مشهداً يحمل ظلالاً كئيبة ويدفعون الحوار باتجاه طرق مسدودة، ضغط نفسي متواصل لتهرب الضحية إلى ما يريدون، أصبحت الخطّة واضحة لي وهدفهم واضحاً، وضعوني أمام خيارين أحلاهما مرّ: إما الاعتقال الإداري الطويل، أو السّفر بلا عودة، أيّ الموافقة على الإبعاد والعياذ بالله.

شقَّ الباب، أطل برأسه وعوى:

. أُبشرك، قرار الاعتقال صدر، لا تفكرً بالخروج من السجن قبل خمس سنوات، تعلم أن كلمة المخابرات لا رادّ لها.

قلت في نفسي: كذبت وخسئت، أستغفر الله، حكم الله لا رادّ له.

وتابع بكل صفاقة وحماقة:

. نصيحتي أن توافق على الإبعاد الآن أفضل من الموافقة عليه بعد خمس سنوات سجن، هذا وارد ألا يطلق سراحك في هذه البلاد.

خطرت في رأسي فكرة فسألت:

. هل قرأت كتاباً أثار عندكم ضجة كبيرة، الكتاب لزعيم كبير عندكم اسمه "أبراهام بورغ"، اسم الكتاب: (لننتصر على هتلر)؟

. لا لم أسمع بهذا الكتاب.

. غريب، هل تحب أن ألخّصه لك؟

دخل وجلس مستمعاً، شرعت في الحديث عن الكتاب قرابة نصف ساعة، ثم سألت:

. أبراهام بورغ اكتشف أنكم مارستم الظلم على الشعب الفلسطيني آخر حياته، وأن في داخلكم هتلر الذي مارس الظلم على اليهود فانقلبتم من ضحية لهتلر إلى هتلر على الشعب الفلسطيني.

ثم ألقيت عليه هذا القذيفة:

. هل تحب أن تكون مثل أبراهام بورغ أول حياته أم آخرها؟؟

امتقع وجهه، خرج وعاد سريعاً:

. اسمع، قرار اعتقالك صدر، ستذهب إلى السجن الليلة، تصبح على خير.

صفق الباب وانصرف.

هل يعتقد هذا الأبله أن هناك احتمالاً بأن أوافق على هذه الجريمة وأن أمشي إليها بقدميّ.

عتلوني في دورية عسكرية إلى سجن مجدو، الواحدة بعد منتصف الليل كنت أستعد للنوم على برشي، بعد عدد الصباح تهيأت للرياضة الصباحية حيث ألتقي مع أصحابي الأسرى، بدأت عجلة الحبسة تدور وانطلقت عزائم قلبي تُحضّر نفسها لحبسة طويلة، خمس سنوات، كلمة المخابرات لا تسقط الأرض!! ولكن، الله غالب على أمره.

في اليوم السادس انقشع الغبار وبطل مفعول السّحر والمحاولة الشاذّة لإبعادي، نادوا على اسمي، ولعلعت كلمة " شحرور " : إفراج ، في عنان السجن.

من تحت الطاولة

حاول قلمي في أُسبوعه الثامن التهرب مراراً من كتابة هذه القصة ولكنه أخيراً انصاع لنداء الواجب فلبى طائعاً:

تركوني وحيداً في زنزانة للتفكير العميق، خبطوني خبطة كبيرة، إما أن تفعل ما تطلب منك فتُبرّئ ساحة خمسة نعتقد أن لك بهم علاقة خطيرة، أو أن تنتظر ومن معك لوائح اتهام طويلة لا ينجو منكم أحد.

. إذا كنت واثقاً أن العلاقة مع هؤلاء علاقة ليست تنظيمية، ولم تقوموا بأنشطة خطرة، فتعال بنا إلى أن نمثّل تمثيلية، إن نجحتم فيها نجوت ونجوا جميعاً، هل أنت واثق من نفسك؟ إذا لنقم بالآتي..

وشرح لي ما هو المطلوب.. واحد من المخابرات يختبئ تحت الطاولة، ثم يحضرون واحداً من أصحابي المتهمين، وأنا أسأله عدة أسئلة كما يحددونها لي، وهم يراقبون ردة فعله وانطباعات الأسئلة على وجهه وكيف يقوم بالردّ عليها، وقد يسألونني أمامه وعلى الإجابة حسب الجواب الذي يحددونه لي مسبقاً.

إذا وافقت مشكلة.. إذ قد يأتون بأحدهم، ويكون عنده شيء مستور فيضطر لكشفه دفاعاً عن نفسه فيقع بذلك في فخّهم، ويصلون بذلك إلى ثغرة، منها يدخلون إلى أسراره لتنفرط المسبحة بعد ذلك، وإذا لم أوافق أيضاً هناك مشكلة إذ هناك ما يجعلهم يؤكدون شكوكهم لرفضي لأني بذلك أثبت بأني خائف من شيء أخفيه عنهم.

بعد تردّد طويل وبعد أن تناوبوا عليّ، كل منهم يحاول إقناعي بأسلوبه الخاص، زاغت معدتي ومللت قولهم، ثم حسمت أمري وقررت الموافقة آملاً أن ينكشف الغم، وأن أُسهم في براءة أصحابي.

كنت مقيّد اليدين إلى الخلف، مثبتّتين في الكرسي والكرسي مثبّت بالأرض، أمامي طاولة تسلّل تحتها محقّق، واضح أنه قد جهز جهاز تسجيل صوت وصورة، بقيت مساحة بين الطاولة والحائط الذي ينتصب على أحد جوانبه باب الغرفة، وكان المحقّق مسؤول هذه الورشة على يميني متمكناً خلف طاولة وأمامه شاشة حاسوب كأنه يستمدّ منها خطواته.

أدخلوا صالح أحد أصحابي، وقف قبالتي شاحب الوجه، عيناه زائغتان مُترقّباً، لا يدري طبيعة المقلب الذي أعدّوه له، عندما رآني ابتسم ربع ابتسامة وعاد سريعاً إلى شحوبه، وانهمر سيل الأسئلة الموجه إليّ وهو يسمع:

. أنت اعترفت بتنظيمك لصالح؟

أجبت حسب الاتفاق:

. نعم صحيح.

. كنت تخطط مع صالح للقيام بعمل عسكري؟

نظرت لصالح ببرود أعصاب، وأجبت:

. نعم صحيح.

زاغت عينا صالح واشتعل الغضب فيها:

. أخذتم أموالاً من التنظيم وقمتم بشراء بندقية؟

. نعم صحيح.

هنا صرخ صالح:

. أعوذ بالله، أنت بالفعل مجنون، أنت أكيد فقدت عقلك، تريد تخريب بيتي، أنت واحد كذاب كذاب كذاب.

انسحب المحقق الذي كان يوجّه الأسئلة وخرج من الغرفة، أصبحنا وحدنا، أنا أعلم بالذي تحت الطاولة ولكن صالح لا يعلم، والآن جاء دوري لأُوجّه أسئلتهم على لساني حسب التمثيلية المتفق عليها معهم:

. ألم نجهّز أنا وإياك حزاماً ناسفاً لعمل عملية استشهادية؟

صَرخَ صالح بكل ما يملك من غضب:

. أنت مجنون، مجنون رسمي، متى كان هذا؟ يا مفتري يا مجرم.

تابعت أسئلتي:

.ألم نرتب الأمر مع التنظيم للقيام بسلسلة عمليات وتنظيم خلايا عسكرية؟

.أعوذ بالله أعوذ بالله، أنت واحد شاطب، ما في ولا حبّة .

.لا يا رجل، لماذا تتنكّر للذي بيننا؟ خطّطنا معاً لأشياء كبيرة.

وأخذ صالح يحرك جسمه يميناً ويساراً ويضرب رأسه بالحائط يصرخ ويزمجر، انتفخت أوداجه، وأخذت عيناه تقدح شرراً، تداخلت كلماته الغاضبة في عاصفة هوجاء توشك أن تطرحه أرضاً، أو أن تداهمه جلطة تقضي عليه، عاد المحقق وخرج الثاني من تحت الطاولة، صفّقا مبتهجين:

. لقد نجحتما، الآن تحققنا من أن صالح بريء، ولا يوجد له أيّة علاقة تنظيمية بك.

ذهبوا بصالح، وهكذا فعلوا مع ثلاثة آخرين ولكن كانوا يغيرون قليلاً في الأسئلة، جاءوا بالخامس، وفي خضم أسئلتي له؟ انطلق لسانه:

. لم نفعل شيئاً، صحيح خطّطنا واشترينا سلاحاً، ولكن لغاية الآن لم نفعل شيئاً. ألقيت كوعاً متفجراً ولكن قبل خمس سنوات، هذا شيء قديم عفا عليه الزمن.

حاولت جهدي إيقاف لسانه ولكن كانوا قد هجموا علينا، دخل محققون من خارج الغرفة، وخرج الذي من تحت الطاولة ودفعوا أمامهم صاحبي الذي انفلت لسانه.

وانحرف اتجاه التحقيق وأصبح بين أيديهم مادة دسمة وأساساً يرتكزون

عليه، أدركت عندها كم كنت مخطئاً عندما شاركتهم هذه المسرحية. كان هو المقصود ولم يكن أحداً من الأربعة الذين سبقوه مقصوداً ولكن جعلوهم طعماً في هذا الفيلم للوصول إلى ما وصلوا إليه.

أبو النور !!؟؟

في الأُسبوع العاشر كان لقلمي وقفة مؤلمة مع قصة ليست جديدة بمضمونها ولكنها فاقت التصور في إخراجها، لنستمع إليها من صاحبها الأشوس الأغر:

بعد ثلاثة أيام وهم يحاولون اصطياد معلومة مني، وبعد فشلهم الذريع طلب مني أحدهم الجلوس على برشي في إحدى زواياه، منعني من الحركة مُغلقاً عليّ بجسمه الضخم إمكانية نهوضي من تلك الزاوية.

بماذا يفكّرون؟ هل يستخدمون القوة بعد أن فشلت دبلوماسيتهم؟ شكّي بهم أنهم عصافير منعني من التجاوب مع أسئلتهم سواء كانت ذكية أو وقحة، من دمث سلس أو من فجٍّ وقح، أبي في ماضيه مكث في السجون عشر سنوات وأفرغ خبرته في قلبي، حدّثني كثيراً عن العصافير وعن أساليب التحقيق فلم يخدعني تمثيلهم ولم تنطلِ عليّ حيلهم الخبيثة.

بدأ اليوم من بواكيره قائظاً، ساحة الفورة ترمي بلهيبها المنعكس من سطوع الشمس عليها لهيب يتسلل إلى الغرف ويعلن نهاراً طويلاً قاسياً، وهذا الذي جاء يغلق عليَّ بكتلته النتنة هذا الفضاء الضيق، دخلت مجموعة منهم ثم أغلقت الغرفة فمها، أطبق الصمت قليلاً، تزحزح محتجزي، نظر في وجهي

بجبين مقطب وعيون محمرّة تغلي غضباً، هتف بصراحة وحزم وكأنه نذير حرب:

. تزاود علينا وعامل نفسك حمامة مكة، خذ اقرأ هذا البيان.

حوقلت وأخذت البيان الذي صعقني، بيان تشهير بشخص قد ثبتت عمالته للاحتلال، أرجعت البصر عدة مرّات وأنا أرى أن اسم هذا الشخص هو اسمي، قال صاحب الوجه النكد:

. أتنكر؟ هذا بيان انتشر في الخارج يشهر بك، والآن عليك أن تعترف بكل شيء، نحن باسم الثورة وباسم الشعب الفلسطيني نطلب منك أن تعترف بكل ما عندك.

صرخت به:

. هذا كذب، هذا افتراء، أنا إنسان أشرف منكم جميعاً.

. هيهات، هيهات، لو كان الأمر قابلاً للبحث، أما وقد صدر البيان فانه قُضى الأمر.

ضممت قبضتي يديَّ وفكّرت بتسديد ضربة خاطفة لصاحب هذا الوجه النكد، غاب عن ذهني أمام هذا الاتهام بهذا الحجم الكبير أنهم عصافير أو تنظيم حقيقي، جمَّعت قواي في ردّ الاعتبار لنفسي، صرخ في وجهي والبقية يحدّقون بي ويحيطونني بنظراتهم الحادّة وكأني فريسة وقعت بين مخالب طيور متوحشة،

. نريد أن نعرف بالتفصيل من ربطك ومتى؟ وماذا قدمت للاحتلال من خدمات؟

هجمت على هذه الفكرة ونجحت بتوجيه لكمة انحرفت عن وجهه وأصابت أعلى صدره، انقضت علي من خلفي أربعة أيدٍ ثبتّتني، وأصبحت مكشوفاً أنتظر تجليات صاحب الوجه النكد، صفعني صفعة قوية وثنّى وثلّث، فُتح الباب ودخل رجل خمسينّي، هاله الأمر وهجم على من صفعني وتعارك معه بضربات متبادلة إلى أن فزع من في الغرفة وفصلوا ما بينهما، صرخ فيه هذا الرجل الذي جاءني من السَّماء:

. ماذا تفعلون بهذا الشاب؟

. قصدك الجاسوس.

. أعوذ بالله، أنا أعرفه وأعرف أباه، عشت معه سنوات في حبستي الأولى.

توجّه إلي بكلامه:

. محسوبك "الدوبير" : ممثل القسم أبو النور.

ثم تابع:

. هذا الشاب من خيرة شباب الجامعة، كتلة، نشيط وفعّال ومن أهم الداعمين للمقاومة في الجامعة، يكفيه أبوه، نضاله المعروف وأسرته الرائدة في العمل الوطني.

. ولكن صدر فيه بيان!!

. نبحث في الأمر ونرى، الخطأ وارد، أنا في جولتي اليوم على الأقسام سأستمع لكل الآراء، عندي أنا نظرة في الرجال، لا يمكن أن يكون هذا الشاب كما ادعى عليه هذا البيان.

جعلت أفكر، هل جاءتني نجدة بهذا الرجل من السماء، أم إن الأمر تمثيلية يتقنها العصافير؟! الموضوع فيه نظر، وصلت قوة من الشرطة، وقفت على الباب وزعق أحدهم:

. من الذي اشترك في طوشة اليوم، أخرجوهم لنا وإلا عاقبنا جميع الغرفة.

تحرّك أبو النور نحو الباب قائلاً للشرطة:

. أنا وهذا الشاب.

فتحوا الباب بسرعة وخرجت مع أبي النور لا أدري إلى أين، ولكن ساقونا إلى زنازين العقاب، دخلنا معاً زنزانة، ثم أخذ يتحدّث مع الشرطة مشدّداً عليه.

. أحضروا لي الضابط المناوب، أنا ممثل قسم ٣ لا يمكن أن تعاملوني مثل أي أسير، هذا شاب أغضبني وتعاركت معه قليلاً وانتهى الأمر.

جلس معي أبو النور وأسهب في حديث طويل، قال لي إنه بحكم علاقته القديمة والعميقة بأبي سمع بأمر هذا البيان فسارع إليه والحمد لله أنه قد وصل في الوقت المناسب، لو تأخر قليلاً لحصل ما لا تحمد عقباه وتحدّث عن الأخطاء الأمنية التي حصلت في السجون وراح ضحيتها أناس شرفاء ومناضلون وقعوا ضحيّة للهوس الأمني.

ثم راح يسرد ذكرياته مع أبي، وحدّثني عن دقائق في حياة أبي لا يطّلع عليها

إلا إذا كان صاحب علاقة قويّة، كان يتحدث بنبرة شغوفة كأنها نهر دافق يفيض حناناً، اعتذر طويلاً عما فعل بي هؤلاء، وأكد لي بأنهم سيتلقون عقاباً رادعاً بعد أن ينزل بيان البراءة، كان متأثرا حزيناً عندما يمرّ على ما جرى معي في هذه الغرفة النكدة، فاضت عيناه وهو يؤكد حساسيّة الأمر وخطورته على سمعتي وسمعة أبي والعائلة ثم عاد إلى الاعتذار، هجم على يدي، سحبتها بسرعة وقبَّلها قبل أن أفلتها منه.

جاء الضابط الذي طلبه، تحدّث معه من الطاقة التي في باب الزنزانة وشرح له ما جرى وصوّره على أنه خلاف بسيط عابر، ثم إنه كممثل للقسم لا ينبغي أن يزنزن على هذا الموضوع البسيط، هزّ الضابط رأسه مستجيباً:

. تخرج أنت على ألا تعود إلى مثل هذا التصرف، أنت كممثل للأسرى يجب أن تكون أكثر ضبطاً لأعصابك، أما الشاب فسنخفّف عنه العقاب إلى أسبوع زنزانة بدل أسبوعين.

قال لي، والشرطة تفتح الباب:

. لا تقلق، لن أتركك وحدك، سأزورك كل يوم، أعدك أن أحلّ الموضوع من جذوره، اليوم سأضع الأخوة المكلفين الأمنيين في صورة الوضع، هذا الهوس الأمني لا يقع فيه إلا أناس تافهون جهلة لا خبرة لديهم.

تركني أبو النور وبقيت وحدي في زنزانتين: زنزانة الجدران الصماء التي تحيطني من كل جانب وزنزانة البيان اللّعين، سيقول الناس: ما في دخان

من غير نار، النار هي العمالة والدخان هو هذا البيان وقيل الناس وقالهم، كم سيكون هذا الأمر قاسياً بل قاتلاً لأبي وأهلي، لا، لا، يجب عمل المستحيل لعلاج ودفن هذه الجيفة قبل أن يستفحل الأمر.

بعد ساعتين تقريباً عاد أبو النور ومعه كيس من المأكولات الشهية، حسنات على تسمية أهل نابلس، ألقاها عليّ:

.الموضوع في طريقه للحل، قل: يا ربّ .

وانسلّ سريعاً من المكان، طفقت أكلاً وكأني أحاول إغلاق هذا النقص الكبير الذي أحدثوه في شخصيتي، أكلت بنَهم وأنا أشعر من كل أعماقي بهذا الحنان الذي أحاطني به أبو النور، هذا الرجل الذي جاءني من السماء، البِشر الذي ينتشر في وجهه، الكلام العذب أسلوباً ومضموناً، يترقرق من فمه كالشهد وينتقي الكلمات لينسج منها منطقاً جميلاً يشق طريقه لأعماق القلب بكل تؤدة ورفق، انتشيت بعد هذه الوجبة ودبّت الحياة في عروقي، قرّرت تحديهم وخوض معركة ضروس معهم مهما كلّف الأمر، شحنت كل قواي وصرت متحفزاً مستفزاً غاضباً بأعلى درجات الغضب، أتلمظ عليهم وأتمنى معركة معهم على قاعدة.. يا قاتل يا مقتول، وعلى قدر هذا الغضب كان الحبّ يشتعل في صدري لهذا الرجل العظيم الذي أتاني بطوق النجاة والذي له نصيب من اسمه، كلّه نور.

سمعت نقاشاً بين أبو النور وشرطة السجن:

. من حقي أن أتواصل مع أسرى القسم، هذا محسوب على قسمنا، هذا من

حقّي كدويبر وممثل قسم،

. هذا معاقب، ممنوع.

.أتحدّاك، هو غير ممنوع، اتصل بمدير السجن، اتصل بمسؤول الاستخبارات، فقط أريد أن اطمئن عليه،

. خلص، خلص، معك دقيقة واحدة.

جاءني على الباب، فقفز قلبي من مكانه عندما رأيت إشراقة وجهه تبسط نورها وضياءها في أرجاء صدري، وقفزت إليه، هتف:

. معي دقيقة واحدة، إذا رغبت في إرسال رسالة أو طلب أي شيء من الأقسام، عندي جولة على الأقسام اليوم.

. شكراً شكراً، يا ريت.. تصل موسى عبد الكريم في قسم ثلاثة وتطلب منه: منشفة وملابس داخلية وبنطالاً رياضياً.

. حاضر يا سيدي ولا يهمك.

عاد آخر النهار بالأغراض التي طلبتها وبلغني تحيات صديقي، ارتفعت معنوياتي قليلاً، جعلني هذا الرجل أتفاءل ودبّت الروح في أوصالي، وحمدت الله كثيراً على أن يسّر لي هذا الرجل.

في اليوم الثالث سمحوا لأبي النور الدخول عندي ساعة، أحاطني بحنانه وأطرى عليّ من الكلام الجميل ما جعلني أحلّق عالياً في عنان السماء، كانت الزنزانة وهذه العقوبة القاسية التي تجعلك في عالم بعيد، منبوذاً حتى من

عالم السجن المعزول عن الحياة فتكون عزلاً داخل عزل، تنتابك مشاعر سوداوية تصبغ كل شيء بالسواد من حولك، لولا بريق الأمل ونور صلة بالله تنازل تلك المشاعر السوداء.

أتى أبو النور كأنه زحزح الصخرة الرابضة على صدري وجعلني أتنفس بحرية، أصبح الهواء نقياً مريحاً، حدّثني وحدّثته، صارحني وصارحته، حدّثته بكل شيء، التنظيم والخطط والأنشطة التي قمنا بها، الخلية التي كنت أشرف عليها، لم تبق شاردة ولا واردة إلا وأرحت صدري من ثقل المحافظة على سرّها، شعرت براحة وأنا أثبت لنفسي مكانتها العالية وأبرهن لهذا الرجل بمصداقيتي العالية، وكان مما تهورت في الحديث عنه أختي الطالبة الجامعية التي كانت على صلة بي في عملي الفدائي وكانت في خططي أنها ستكون ذراعاً لنا في الأنشطة النسائية.

حدثني أبو النور عمّا فعله من أجل الرّد على بيانهم الكاذب والمساعي التي يقوم بها لدى قيادة التنظيم في السجون لإثبات براءتي ومن ثم إصدار بيان يدحض بيانه ويبطله، كان يتحدث من أعماقه وكان لكلماته نور يسري في عروقي، كان كتلة من المشاعر الطيبة تعانق مشاعري وتنشر في روعها الحبّ والروح الدافئة، كم كنت بحاجة إلى مثل هذه الروح وأنا أتلظّى في صحرائهم القاحلة!

أنهى حديثه بإخراج ورقة من صدره وكأنه كان يخفيها في قلبه، أراني ثلاثة تواقيع أسفل الصفحة، كانت لقادة من قادة الحركة الأسيرة الاسم والتوقيع، وقد كنت أعرف تماماً توقيع أحدهم، وطلب مني برؤوس أقلام أن أكتب

ملخصاً لما حدّثته به، وقال إنني بهذا أقدم للقيادة الدليل القاطع وهذا يجعلهم يُصدورن قرار وبيان التبرئة بكل ثقة ويقين، وهذا يجعلني أحظى بمكانتي التي حاول هؤلاء تشويها. وهتف: مرحباً فرجت يا حبيب.

نادى الشرطي في الخارج ضارباً بيده على باب الزنزانة، طلب منه أبو النور أن يمهله عشر دقائق فأجاب الشرطي، فقط خمس دقائق.

هجس في نفسي هاجس وارتعش القلم في يدي، وتذكرت بأني حدثته بكل شيء، ثم إني أرسلت رسالة لصاحبي وطلبت أغراضاً وجاءني بها والآيات والأحاديث التي تنساب بحلاوة على لسانه، لا يمكن أن يلتقى كل هذا النور وهذا العطف والرحمة وهذه المعاملة الرائعة مع شخصية جاسوس، وكتبت رؤوس أقلام كما أراد، أخرج القلم مداده بسخاء وحتى أختي كتبت عنها ولم أعقّب شيئاً.

في المساء وجدت نفسي أمام المحققين وهم يتبسّمون، حِرت في أمري، أيُعقل أن يكون هناك تنصت في تلك الزنزانة اللّعينة؟ والاحتمال الثاني أبو النور؟! لا هذا مستحيل.

دخل رجل وسيم يشبه أبا النور، بدلة وأناقة عالية سألوا: أتعرف هذا؟

زاغت عيناي، معقول، خلع نظارته ولبس لباس العمل الذي كان عليه في السجن فإذا به هو، نعم هو، أنكرته أخرجوا لي الوثيقة، أنكرتها، فتحوا التلفاز، كانت الزنزانة منطبعة على الشاشة وكنت أتوسّط الزنزانة مع أبي النور، وأشرح له بالتفصيل المريح.

مدّ شبيه أبي النور يده مصافحة:

.أخوك أبو النور، الاسم الحركي المحقق شلومو.

غامت عيناي وشعرت بغشاوة تضرب أركاني، رشوا عليّ عطرا كي لا يُغمى علي، هتف أحدهم،

.اعترافك ثلاثي الأبعاد صوت وصورة وكتابة بخط يدك.

وهتف أبو النور والنور مشرق في وجهه:

. ومحسوبك شاهد عيان، الكابتن شلومو: ما رأيك هل أصلح للتمثيل في هوليود؟

تحطّمت معنوياتي، تحوّلت إلى ركام لا حول له ولا قوّة كالبيت الخرب، واجهوني بأختي التي انفجرت باكية عندما رأتني بعد أن انكرت اعترافاتي عليها. لا أدري كيف ضاعت توصيات أبي صاحب الخبرة الطويلة في السجون أمام إشراقات وتجليات أبي النور، ألا لعنة الله عليه.

وقعت عن الحمار

ضحك طويلاً قلمي وهو يكتب قصة الأُسبوع العاشر، إنها قصة لرجل لا تلين له قناة ولا يطرف لقلبه أي ميل أو ضعف:

انفجرت به عبوة ناسفة ففتحت بطنه وضربت الشظايا صدره ووجهه، كانت اللفائف البيضاء تلفه من كل جانب، يرجع رأسه إلى الخلف وفمه مرفوع إلى الأمام مع لسان يصرخ كناطق إعلامي فاشل، كانت فرصة المحقّق أن يستلَّ منه الاعتراف دون عناء التعذيب، فقط ما عليه إلا أن يوقف المسكّنات.

. مرحباً سيد عليّ، قصّ القصة، أنت تحتاج إلى العلاج وإلاّ عشت بقيت حياتك مشوّهاً، حرام على شبابك، إشارة مني تتلقّى أحسن علاج ويعود لك شبابك، الآن هات القصة من طقطق للسلام عليكم.

ثبت عليّ عينيه في عينيّ هذا المتفلسف وهو يدبر ردّاً مناسباً يخترق آلامه ويزرع الألم في قلب خصمه،

قصتي تتلخص في كلمة واحدة:

. هات، سمّ الله وقل.

. قصتي إنّي وقعت عن الحمار.

قطب المحقّق جبينه واشتعل الغضب في صدره، وصرخ:

. هذه الجراح، وهذه الشظايا التي أصابت كل جسمك من وقعة عن الحمار؟

وهدأ من روعه قليلاً وبنبرة حاول أن يفتح فيها شيئاً من الشفقة تابع:

. ربنا بالعقل عرفوه، لما تقع عن الحمار قد تنكسر يدك أو ساقك، أما أن تنزل بك كل هذه الجراحات فهذا دليل قاطع بأنك كنت تحمل عبوة ناسفة وكنت قريباً منها، مثلاً: كنت تجهز هذه العبوة، ثم إن مكان الانفجار على شارع إسرائيلي عام، يعني لا تأتي الحمير هناك ولا يسمح لها أصلاً بأن تكون هناك، الأمر واضح والأدلّة تحيط بك من كل جانب، قُصّ القصّة لنغلق الملف ولنتمكن من متابعة العلاج، ما رأيك عليّ؟!

. قلت لك، وقعت عن الحمار.

اسودّ وجه المحقّق غضباً وهو يرى فريسته تهرب منه، قبض على القيد الذي ربطوا به ساقه بالسَّرير وهزّه هزّاً عنيفاً، ملأ عليّ بصراخه المشفى وهرع الأطباء والممرضون والممرضات ليشهدوا مساوئ لهم، كيف تغيب ضمائرهم أمام هذا المشهد، صحيح أنه بدا الامتعاض على بعض الوجوه، ولكنّهم آثروا الصمت.

جاءه محقّق ثانٍ في صبيحة اليوم الثالث لهذا العلاج المبرمج على هوى المحقّقين، جاء على صورة طبيب ويلبس بدلة غرفة عمليات، ابتسم له، وطمأنه على وضعه وسير العلاج:

. أنت في حالة تحسن مستمّر، تعلم نحن في المشفى لا يهمنا إلا القيام بواجبنا الإنساني بصرف النظر عن المريض إسرائيلياً كان أم فلسطينياً.

وكان عليّ يحدّق به ويقول في نفسه: أعمالكم تكذّب أقوالكم، يا لكم من مجرمين! ماذا فعل بي صاحبكم قبل يومين يا أفاكون؟ انتبه إليه بعد سرد طويل وهو يدقُّ إسفيناً وكأنه يريد أن يفتّت صخرة:

. نحن كأطباء في المشفى يحب أن نعرف تفاصيل الحادث حتى يكون العلاج صحيحاً، هذا يساعد جدّاً في عملية العلاج، ظروف الحادث وكيف حصل، وعن ماذا نتجت هذه الجراح العميقة.

. ممتاز جدّاً، أنا مستعد يا دكتور.

. تأكد تماماً أن الجهاز الطبيّ لا علاقة له بالمخابرات، فقط نحن نريد أن نعرف لأغراض علاجية.

ابتسم وتهلل وجهه:

. حسناً اشرح لي بالتفصيل إذا سمحت،

. تفاصيل الحادث؟

. نعم، بالتفصيل، تفضّل.

. القصة إني ركبت الحمار، انطلق بي وفجأة وقعت عن الحمار وصار ما صار.

نفخ وشعر بحجم السخرية والإهانة وولّى خارجاً.

قبيل تماثله للشفاء نقلوه مع آلامه في بوسطة خاصة إلى مركز التحقيق فوجد المحقق الذي جاءه أوّل مرّة، صاح بنبرة حادّة:

. هنا المسلخ، هنا لا تستطيع الإنكار، سنسلخ جلدك المحروق هذا عن عظمك، هل تتصور أن تفلت منا دون اعتراف والدليل القاطع الحاسم شاخص على جسدك، أنت إنسان مغرور واهم لا تعرف وزنك أمام وزن المخابرات وقدراتها الهائلة، سنخرج كل ما في بطنك إن لم يكن اليوم سيكون بعد ثلاثين يوماً بعد ستين يوماً بعد مائة وعشرين يوماً، نحن لسنا في عجلة من أمرنا، نحن وإياك والزمن طويل، وفّر على نفسك واعترف الآن خير لك.

قال بهدوء:

. أنا اعترفت لكم، أنا وقعت عن الحمار.

ضرب بكلتا يديه على الطاولة وعوى في وجه عليّ:

. حكاية الحمار هذه سنحيلها ناراً تحرقك، أنت بهذا تختار الطريق الصّعب.

وكان عليّ يرتّب بجبهته المعنوية، نعم طريق ذات الشوكة، طريق الرِّجال في مواجهة ألدّ أعداء الله،

وجاء محقق ثانٍ يحاول بحركة بدنه السمين غير المتناسق مع حركة عينيه الناعمتين، يحاول اصطناع نظرات حادة دون جدوى، بدأ حواره بقصة يستخدمونها كثيراً:

. هل تعرف قصة رجل عندما مرّ على جحا، وقد وقع في حفرة في الصباح

الباكر، طلب منه أن يغيثه ويخرجه منها فطلب منه الرجل مائة درهم فرفض جحا، مرّ عليه في اليوم التالي فوافق حجا، رفض الرجل وطالبه بمائتي درهم، احتج جحا ورفض فتركه الرجل حتى إذا كان اليوم الثالث ووافق على دفع مائتين رفض الرجل وطلب ثلاثة، وكان التعب والجوع قد أخذ منه كل مأخذ فوافق جحا ودفع الثلاثمئة درهم.

عرف عليّ مراده، كانت الآلام مازالت تضرب، وبقايا الحروق تلسع، وتحدث دوائر ألم تخترق أعماقه خاصة عندما ينتهي وقت المسكنات التي ألهبوا معدته بها، هذه القصة تغري وتوحي بوضع حدّ سريع، خبرة عليّ السابقة بهم أن الاعتراف بداية الألم وليس نهايته، يفتح شهيتهم للمزيد من الاعترافات ويعطيهم أملاً بأن ضحيتهم عنده قابلية التنازل، وقرر ألا يمنحهم هذا الأمل، فألقى لهم قذيفته:

.أنا لا أدري لماذا لا تصدقون بأني قد وقعت عن الحمار؟

واستمرت جولات التحقيق بين الترغيب والترهيب، وتناوب عليه ما يقارب العشرة محققين وكانت نتيجة كل جولة هذه الكلمة: وقعت عن الحمار.

قرروا إنهاء التحقيق معه فأرسلوه إلى قسم العصافير عبر بوسطة سارت به طريقاً طويلاً وأرست في سجن إيشل في مدينة بئر السبع.

استقبلوه استقبال الأبطال ودللّوه دلال الأطفال، أطروا عليه بكل معاني المدح والثناء، الكل يبادر بخدمته، يشعر أحدهم بالفخر والاعتزاز كونه يتواصل مع مناضل قديم وجريح قدّم نفسه فداءً للوطن. وكان الذي عرفوه

له بأمير التنظيم يتفنن في كيل كلمات الثناء وفي الوقت نفسه يتحين فرصة للانقضاض، ينتظر باسترخاء الفريسة وانخداعها بالشِباك، ينتظر لحظة ضعف، وكان عليّ في الوقت نفسه يتجاوب معهم ويرد على مجاملاتهم.

حام أميرهم طويلاً حول الحمى، استرخى عليّ لهذا التغير الذي أغدقوه عليه، خدمات ومأكولات ومشروبات، أسبوع وهو في كامل استرخائه وفي قمة نشوته، راغ معه أميرهم:

.أخي الحبيب عليّ، وصلتنا رسالة من التنظيم في الخارج تسلم عليك كثيراً، ويُريدون أن تطمئنهم عن صحتك، يسألون عن أحوالك ويريدون معرفة ما جرى معك، كيف حصل الحادث، هناك ضرورة وهم ينتظرون منك رسالة تفصيلية وأن توصلها عبر القنوات التنظيمية، ويحذرونك من الطرق غير المألوفة.

صمت عليّ طويلاً، توهم الأمير بأنه يفكّر في محتويات الرسالة:

.أريد ورقة وقلماً إن سمحت.

. صاح الأمير، ورقة وقلم يا شباب.

أمسك بالقلم وصمت طويلاً ثم كتب:

لمن يهمه الأمر:

قصتي بكل دقة وصدق واختصار أني وقعت عن الحمار.

عصافير على الحدّ الفاصل

في الأُسبوع الحادي عشر، وقف قلمي متأملاً هذه القصة:

بعد أن فشلت كل جولاتهم وتبخرت كل تهديداتهم ولم يُجد مكرهم في الوصول إلى طرف من أطراف قصته حولوه إلى سجن العصافير العملاء، وهؤلاء أيضاً لم يأخذوا منه حقاً ولا باطلاً، عرفهم وكشف أمرهم من أول وهلة، هم متأكدون بأن خلف هذا الشاب قصة ، وهو ما فتئ يؤكد براءته، كانت الحرب بينهما ضارية ولم ينالوا منه ما يريدون.

قرروا إبعاده إلى قطاع غزة وبلغوه بالقرار مكتوباً ومختوماً بختم قيادة الجيش الإسرائيلي. وساروا به في سيارة جيب عسكرية، وخلفها وأمامها جيبات للحراسة الأمنية، كان معصوب العينين دون إحكام عنيف على عادتهم ما سمح له أن يتلصّص فيرى وطنه السليب، رأى بأم عينيه الساحل الفلسطيني بحلله الخضراء، ورأى كيف شقت طرقهم السوداء طهارة هذه الأرض، أقاموا عليها دولتهم الباطلة وجعلوا منها موطئاً لأطماعهم، كانت القافلة تسير بسرعة وكانت أفكار أسيرنا تسارع خطواتهم وتتوقع الأسوأ منهم.

معقول إبعاد؟! هل أُذعن لقرارهم؟ لن أستسلم لهذا القرار ولكن وعلى فرض رموني على حدود غزّة فماذا بإمكاني أن أفعل؟ هل أبقى واقفاً مكاني كما فعل مبعدو مرج الزهور على الحدود اللّبنانية؟ كيف سأنفصل عن حياتي في الضفة وأبدأ من جديد في غزة، أهلي وزوجتي وأبنائي وأصدقائي وبيئتي التي نشأت بها معقول هذا الكلام ، ولماذا؟

كان الطقس جميلاً وكانت شمس الأصيل تُظهر فيافي هذه الأرض بكل تجلياتها، كانت روحاً قبل أن تكون جمالاً ظاهرياً، نبضي ينسجم مع نبضها، استمع لما تكتنزه من ذكريات قامت على مسرحها، حضارات قامت، تحركت إبداعاتها ودانت لها هذه الأرض بطيبتها النادرة ثم ثارت واستعصت على كل من أراد أن يبغي على سطحها ظلماً، عبرها الرومان والصّليبيون والتّتار واستقر بها المقام مع الفتح الإسلامي، كل العظام أقاموا عظمتهم على فلسطين، أما هؤلاء.. فكيف تجرؤوا؟ مجرد فكرة السيطرة على هذه الدرة. هل هم على قدر هذه الفكرة؟! ولكنهم ساروا خلف غرورهم وسيطروا، هل يدوم لهم هذا الأمر وإلى متى؟؟ انظر إلى ما برز على سطحها، وأغوص في أعماق روحها وأرى حتماً أنها سوف تلفظهم لأنهم خارجون عن سمتها ولن يستطيعوا تلاوة نصها.

بالفعل كنت أقترب من قطاع غزة وكانت القافلة تسرع بأقصى ما عندها وكأنها جنازة تريد التخلص من ميت غير مرغوب فيه، وقطعنا حاجز إيرز المعروف وعند أقرب نقطة فلسطينية توقفت القافلة، أنزلوني وفكوا وثاقي، حلو العصبة عن عيني، زعق أحدهم:

. أمامك دولة غزّة، إياك أن تلتف خلفك.

صرخت في وجوههم:

. لن أتحرك من مكاني، لن أدخل غزة، وطني كل فلسطين، سأعود إلى بلدي الذي ولدت فيه.

رد قائدهم مهدداً:

. أنت تلعب بدمك، إياك أن تلعب بالنار.

ركبوا سياراتهم على جناح السرعة كأنهم شعروا بأنهم على مرمى النار فولّوا هاربين، أغرقوني بغبار العاصفة الرملية التي خلفتها عجلات سياراتهم. انقشع الغبار على مجموعة مسلحين فلسطينيين هرعوا لاستقبالي، استقبلوني بحفاوة بالغة وأخذوني معهم فرحين مهللين، وجدتهم يعرفون اسمي وأشياء كثيرة عني، ولما بدت علامات الاستفهام في عيني قال متحدثهم حيث بدا واضحاً أنهم اتفقوا على أن يكون أميرهم أو لسانهم:

. لقد طنطن الإعلام كثيراً حول موضوع إبعادك. سمعنا عنك وعن سيرتك النضالية كثيراً في الإعلام، صدرت بيانات شجب واستنكار كثيرة بالأمس، عندنا في غزّة كان من المفترض أن تستقبلك القيادة بأعلى مستوياتها ولكن فضلوا أن لا يعطوا للإبعاد هالة كبيرة ويتساوقوا مع الاحتلال الذي قال بأنه أبعد إحدى القيادات العسكرية ذات الوزن الكبير، انتدبونا لاستقبال حضرتك، وسيكون الاستقبال الرسمي قريباً إن شاء الله.

دخلنا بيتاً جميلاً قالوا عنه أنه مضافة رسمية للشخصيات المهمة، كان مكيفاً وقانا حرّ ذلك اليوم رغم أنه كان حراً محتملاً وكان الأثاث فاخراً وديكوره قد تفننوا فيه كثيراً.

الملامح الغزاوية بدت في وجوههم سمرة خفيفة وأسنان صفراء قد عملت فيها مياه غزّة شديدة الملوحة عملها، اللّهجة الغزاوية التي عهدتها منهم يوم عشت معهم في سجن عسقلان، النخوة العالية والغداء لعب فيه الفلفل الأخضر والشطة الحمراء دوراً مميزاً.

فرغنا من الغداء وجلسنا نتحاور. تحدثوا طويلاً عن حالة الحصار التي يعاني منها القطاع وعن المقاومة وصراع الإرادات بينهم وبين الاحتلال، وتحدثوا عن الحروب التي خاضتها غزّة ووقفت فيها المقاومة شامخة ونجحت في صناعة توازن الرّعب مع جيش الاحتلال، وراحوا إلى الضفة والاعتقالات الدائمة لأحرارها وكان دوري لأتحدث عن أحوال الضفة بالتفصيل رحت إلى أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية، سأل أحدهم سؤالاً أثار حسي الأمني وضخ الدم في عروقه:

. حبذا لو تنورنا، ما الذي جعلهم يفكرون بإبعادك؟ حالات الإبعاد نادرة جداً لماذا اختاروا لك هذه العقوبة؟ ألهذه الدرجة أنت خطير عندهم؟

لماذا يسأل هذا السؤال؟ يريد معرفة الذي لم تتمكن مخابرات الاحتلال من معرفته، علامة استفهام كبيرة على السؤال والسائل، لذت بالصمت طويلاً فاستطرد:

. أنت في أمان هنا في غزّة، معذرة للسؤال، اعتدنا أن نسأل بحرية وراحة ولم يعد الاحتلال كابوساً يطارد أرواحنا.

. هنيئا لكم، لكني أستحي أمام رجال المقاومة أمثالكم أن يكون أمري متواضعاً جداً.

. لا تتواضع أخي كثيراً، عندكم تعقيدات العمل المقاوم أكثر بكثير من عندنا، وقال آخر:

. إننا متشوقون لسماع ما صنعته إرادة الرجال عندكم، أمتع قلوبنا واشف صدورنا بأفعال الأحرار.

بدأت تتكاثر الألغام في كلامهم وواضح أني أصبحت أمام خيارين: أن يفلت لساني من عقاله أو أن أحافظ على رباطه محكماً، اخترت الثانية، ولم أعطهم أي حرف يطمعون فيه وكانوا يوهمونني بأنهم ينتظرون وفداً رسمياً من القيادة لاستقبالي، جاء المساء ولم يأت أحد، وقف وابتعد قليلاً أميرهم ليرد على مكالمة، عاد من المكالمة مقطب الجبين عابس الوجه وكأنه شيطان، هتف بصوت يمتلئ سخرية:

. لقد وصلنا خبرك يا محترم، عملت القيادة فحصاً أمنياً عنك لذلك لم يتورط أحد باستقبال رسمي لك، لقد اكتشفوا حقيقة أمرك، والآن أمرك مكشوف ولا داعي لكل هذا التصنّع، هذا إبعاد لزراعة عميل لهم في غزة.

. ماذا؟! طلع جاسوس محترم.

. أنت متهم وإذا أنكرت نريد إثباتا واضحاً بأنك ما زلت في الصف الوطني، نريد معززات وإثباتات تبرئ ساحتك.

الآن ثبت لي بالوجه القاطع أنهم عصافير وإني لم أدخل قطاع غزة وإنما هي غرفة عصافير أقاموها على الحدود للعب هذه اللعبة، وتذكرت قصة أحد المجاهدين عندما سافروا به في طائرة مروحية إلى جنوب لبنان وهناك أبلغوه بقرار الإبعاد وأباح بما عنده للأخوة اللبنانيين هناك وبالطبع كانوا عصافير، أعيد بعد ذلك إلى التحقيق محملاً باعترافاته التي جاد بها هناك..

راغواً كثيراً، صالوا وجالوا وهم يطالبون مني إثبات براءتي وإقامة الحجة في وجه من اتهموني بالعمالة، قلت لهم بهدوء بعد أن ضاق صدري وغاثت معدتي:

. من جاء بالإتهام عليه أن يثبته، أما البريء فليس المطلوب منه إثبات براءته أنا لست مجاهداً ولا مناضلاً ولا جاسوساً أنا فقط مواطن ونقطة آخر السطر.

نظر كل منهم في وجه في وجه الآخر، أيقنوا بأنهم أمام حالة صعبة المراس، ولم تنخدع بهذه المسرحية بل كشفت مسرحية ممجوجة مملة لم تأت بأي جديد، خالية من المفاجآت لا كوميديا فيها ولا تراجيديا، لا مشاعر ولا إثارة ولا حركة، رتابة قاتلة، تصوروا بأنه سيقع في هذا الشّرك ومع هذا الجوّ الذي أتقنوا صنعه سيحل لسانه ويقصّ عليهم القصص فيسجلونه صوتاً وصورة ولكن خاب مسعاهم.

اقتحم علينا المحققون والجيش المكان، وضعوا القيد في يديّ وساقوني إلى حيث كانت الجيبات نفسها التي أحضرتني، وكأنه الاعتقال من جديد، وعادوا بي إلى أقبية التحقيق ليجربوا أسلوباً آخر.

آذان صاغية

في أُسبوعه الثاني عشر، وقف قلمي على آذان صاغية من الممكن أن نتوقع زراعتها هذه الأيام في أماكن غير متوقعة:

استمع محمود بكل دقة ووضوح لتسجيل صوتي لحديث دار بينه وبين عليّ، تكلم الاثنان عن العلاقة التنظيمية التي كانت تربطهما وعرّجا على تقييم لفترة نشاطاتهما التنظيمية، ومرّا على أسماء كانت لهما بهما علاقة، وكذلك استمع عليٌّ إلى التسجيل نفسه، اعترف بالأمر وجاؤوا بكل من اشترك معهما وذكر اسمه في التسجيل.

عاد محمود إلى نفسه وهو يضرب رأسه بزاوية البرش التي لا تدرك ما الذي يعتمل داخل هذا الرأس؟

تعمّدوا أن يضعوا عليّاً معي في السيارة نفسها التي اعتقلونا بها، وفي إحدى محطات الاعتقال طال انتظار السيارة وأنا مع عليّ وحدنا جنباً إلى جنب، كنا أصحاب سوابق ففهمنا اللّعبة. تحدثنا في أمور كثيرة ولم نقترب من المحظور مطلقاً، وكرروا معنا الأمر عندما شبحونا جنباً إلى جنب وكأن الأمر يجري صدفة، اكتشفت أن المشبوح جنبي هو عليّ وكذلك هو اكتشفني، وكنّا

متشوقين لبعض وبأشد الحاجة لأن نفضفض ما في صدورنا ونزجي قليلاً من وقتنا لنزحزح صخرة الكآبة التي اعتلت صدرينا، غضوا الطرف عن بعض الهمس والوشوشة التي كانت تنتقل من أُذن إلى أُذن عند المشبوحين، كان ذلك بعد خمسة عشر يوماً من التحقيق القاسي بعد أن تكاثف الرّان في قلبينا وملّت نفوسنا.

نجحنا في الحفاظ على أسرارنا في أعماق صدورنا التي كانت بالفعل صدور أحرار قبرت فيها أسرارنا،

كذلك فعلوا بنا عندما جمعونا في زنزانة واحدة، كنا متيقنين بأن هناك أجهزة تنصت سواء كان ذلك في السيارة أم في الشبح أم في الزنزانة، كان الحذر هو ديدننا ولم نمكن رقابنا لهم ولا لأجهزة تنصتهم بأي حال من الأحوال، ولكن كيف وصلوا إلى هذا التسجيل؟ نعم تحدثنا معاً وكان التسجيل صادماً ولم يكن دبلجة ولكن أين يا محمود؟! الذي أذكره أننا تحدثنا في الساحة من باب الاحتياط فالساحة التي تعج بالأصوات، لا يمكن أن يفرزوا أصواتنا الهامسة من بين الأصوات الصارخة التي تضربك من كل مكان، هل من الممكن أن يكونوا قد تمكنوا من عليّ وأسقطوه فقام باستدراجي لهذا التسجيل؟ الاحتمالات محصورة، وكل شيء أصبح في هذا الزمان وارداً! عُدْ يا محمود إلى الوراء وحلّل تصرفات عليّ، المشكلة التي حدثت معه بداية دخولنا السجن، أوشكت أن تشعل حرباً بين الفصائل، هذه نقطة أمنية خطيرة! قيامه من النوم المتأخر على وقفة العدد، نقطة ثانية هي حديثه الهادئ مع السجانين علامة استفهام؟! إذاً هناك نقاط كثيرة. وكل شيء ممكن في هذا الزّمان.

جمعتهما ساحة السجن ثانية بعد جولة التحقيق الثانية. كان عناقهما فاتراً وكانت نظرات كل منهما للآخر مريبة، دخل الشَّك في قلبيهما وتدحرج كما كرة الثلج التي تزداد يوماً بعد يوم، لاحظ الأصدقاء ذلك، كيف كانا قبل سحبهما للتحقيق وكيف صارا ؟! حاول بعضهم معالجة الأمر ورأب الصدع بينهما فلم يفلح أحد بعد أن استفحل الشَّك في قلبيهما.

دخل الشتاء ببرده وزمهريره، وأنذر الأسرى من بدايته بشتاء قاسٍ، يحسب حسابه الأسرى حيث يتلقون رسائل الشتاء المبكرة بكثير من الذكريات القاسية، يمضي الشتاء ببرده بشقّ الأنفس، ويمضي الصّيف بقيظه ولهيبه بعد أن تكاد النفوس تلفظ أنفاسها، وهكذا تمضي سنوات السجن بظلالها الثّقيلة ونصالها الحادة.

أصبح الأسرى بعد ليلة من الرعد والعواصف العاتية يذرعون الساحة ليبدّدوا ما طالها من برد اللّيل القاسي، في إحدى الزوايا التقط أحد الأسرى لاقط صوت صغيراً ملقى على أرض الساحة، وتيقن الأسرى أن هناك أجهزة تنصت مزروعة في الساحة وبالدليل القاطع.

انشرح صدر محمود بالتسجيل الصوتي الذي أسمعوه إياه: إذا هو من هذه اللواقط يا فصيح زمانك، كم تحدثت مع عليّ في تلك الزاوية بالذات، وهل الغرف خالية من هذه اللّواقط؟؟؟

إذا هي آذان صاغية منتشرة تعمل لصالحهم بكل صدق وأمان..

غلطة الشاطر

في الأُسبوع الثالث عشر كان لقلمي أن يتوقف عند هذه القصة لشاب يدعى سالم نور، وكم سنجد من القصص الغريبة لو فتحنا ملف الجسور؟؟

ورد في التقرير الأُسبوعي لضابط المخابرات الإسرائيلي موشي المسؤول عن غرفة١٠ على جسر الكرامة اسم لشاب يدعى سالم نور، يعمل هذا الشاب في شركة إلكترونيات في دبي، تصمم هذه الشركة طائرات دون طيار لأغراض متعددة ، درس الهندسة الإلكترونية وتوظّف بعد تخرجه مباشرة في هذه الشركة، نشأ وترعرع في قرية من قرى شرق نابلس، درس في جامعة النجاح، ذكيّ، لمّاح، وسريع البديهة، قصير القامة لكنّه طويل البال في الدّرس والبحث والتوق الدائم للإبداع ، تخرج بتفوق، استقطبته هذه الشركة للعمل معها بعد وقوفها على ذكائه الذي جعله متفوقاً على أقرانه.

درس هذا الضابط المقابلة التي أجراها في غرفة الجسر مع سالم، هذه الدّردشة التي يستهين بها الناس أوصلته إلى معلومات يبني عليها تقريره، استنتج أن هذا الشّاب بما يحمل من إمكانات قد يشكّل خطراً لا يستهان به، وجعل من توصياته أن يوضع هذا الشّاب والنّاس الذين تشملهم شبكة اتصالاته تحت المراقبة وهذا يسمّونه خطوات استباقية أو عمل احتياطي من

باب التّوقع، سمح له بالسّفر ولم يشعره بأنه قد أثار اهتماماً خاصاً اتجاهه لدى المخابرات الإسرائيلية.

حول التقرير إلى شعبة المراقبة والمتابعة الإلكترونية، وعلى الفور تم فرز مجموعة وظيفتها تسليط الضوء على كل ما يقوم به على شبكة النت واتصالاته وفعالياته على مواقع التواصل الاجتماعية وهاتفه الذكي المحمول وهاتف مكتبه العادي.

بعد أسبوع من المراقبة المكثّفة تم تحديد هوية سالم الثقافية وهواه السياسي من خلال شبكة علاقاته. إن لم يكن كلهم فإن أغلب الذين يتواصلون معه من ذات الهوى الثقافي والسياسي، وتم تسجيل ملحوظات: أنّه حذر جداً وينتقي عباراته في التواصل بذكاء وبعيداً عن أيّة شبهة. صفحته على الفيس بوك بعيدة عن التحريض والمهاترات السياسية ، واضح أنه عقلاني وبعيد عن أن يكون عاطفياً، وهو بؤري محدّد لعلاقاته ويختار الدائرة المقربة منه بدقّة وحزم، غير منتشر اجتماعياً، كل من يحاول عبر الرسائل أو الإيميلات أن يفتح موضوعاً فيه شبهة أو احتمالية توريط في عمل سياسي أو حتى انحياز لرأي سياسي فإنّه يغلقه بحزم ويهرب منه بذكاء، كان كمضاد للفيروسات والحذر الشديد ينذر بشيء مخفي خلف السطور، وهكذا كانت خلاصة تقرير أوليّ من الرّقابة.

وكان من أساليبه المحببة أنه دائماً يتوقع الأسوأ، ويبني عليه فلا مجال عنده لحسن الظّن، بل سوء الظّن هو الأساس، دوماً يقول لأعضاء فريقه: تخيل أنّك أنت الفلسطيني وفي موقع هذا الذي ترصده، أنت محتل وتعاني

ويلات الاحتلال ماذا عليك أن تفعل؟! هكذا هم يفكرون... فَكِّرْ كما يفكّر خصمك، إنسان اغتصبنا أرضه التي يسميها فلسطين وأقمنا دولتنا عليها، وما زلنا نشكل له مصدر الإزعاج والمعاناة على الحواجز والمعابر وفي السياسة والاقتصاد، وقد يكون هذا الإنسان ذا عقيدة دينية أو قومية أو مشاعر عدائية وعنصرية فما الذي يمكن أن يخرج من هذا المركّب ضدنا؟ وكان يحسب الأمر على أسوأ حال ممكنة.

طالعت الصحف وشاشات الهواتف الذكية ومواقع النت خبر دهس شاحنة لمجموعة من جنود الاحتلال، ونُقلَ الخبر مصوراً في مقطع فيديو انتشر انتشار النّار في الهشيم، ودخل دافيد بصفحته الوهمية معترك التعليقات الملتهبة وعرض مقطع الفيديو على صفحته وانهالت عليه التعليقات الساخنة، كان من بينها من أصحاب سالم، سالم لم يعلق وبقيت صفحته خالية الوفاض وكان هذا الأمر لا يفيد، كم هذا الإنسان عميق؟ يبالغ جداً في التمويه ومع هذا فإن دافيد يراهن على أن خلفه قصة.

واستطاع ديفيد بمساعدة فريق العمل معه اختراق صفحة سالم وكل صفحات أصدقائه على الفيس بوك وأصبح أمر فعالياتهم على النت مكشوفة بكل تفاصيلها.

وكان ثلاثة من أصدقاء سالم يرسلون رسائل عادية جداً ثم يقومون بحذفها مباشرة، طالما أنها عادية فلماذا يحذفونها؟؟! ممكن أن تحتوي على جمل أو كلمات لها دلالات خاصة بينهم، لا يريدون إعطاء دليل للمحكمة والقضاء بينما للمخابرات تكفي إشارات وجمع نقاط، وبدأت تتحقق من أنّ

هناك علاقة خفية، وممّا عزّز هذه القناعة أن هناك اتصالات من الثلاثة تمت مع سالم من غير شرائحهم المستخدمة، وإنما من شرائح استخدمت لمرة واحدة وتم إتلافها بعد ذلك، ولكن تم ضبطها من خلال بصمة الصوت وجهاز الفرز على أساس البصمة.

بحثت مجموعة المتابعة بقيادة ديفيد العناصر المشتركة بين الثلاثة ورابعهم سالم، خريجي الدفعة نفسها من الجامعة نفسها، الأربعة كانوا نشطاء في الأنشطة الوطنية التابعة لفصيل واحد في الجامعة، أصدقاء كل منهم على صفحته يشاركونه الهوى السياسي، سالم رغم أنه يتمنع عليهم ولا يتحدث مباشرة ولا يقع في حمأة الأحداث المستعرة فلا يحرّض ولا يؤيد ولا يدعم، يلتزم الحياد وأحياناً يرمي تعليقاً غامضاً يحتاج إلى وقفة طويلة لتصل إلى مرماه.

أما عند أصدقائه الثلاثة فإن الفاحص يجد ثغرات واضحة، لم يلتزموا منهج صاحبهم ولم يغرقوا في الغموض عميقاً كما هو حال سالم.

ولاحظ ديفيد عبارة: "ما أجمل اللّقاء في موسم المشمش"! وردت في رسالة واحدة من الثلاثة إلى سالم، واضح أنه كان المخول في التواصل مع سالم نيابة عن الثلاثة.

وثم الإيعاز إلى موشي ألا يعترض طريقه بإجراء أيّة مقابلة وإنما يتركه يمر بسلام إن عاد إلى الضفّة في موسم المشمش، وبالفعل كانت العودة الميمونة وتم تتبّع اتصالات الأربعة من خلال بصمات الصوت، تمّ التّعرف على شرائح لجوالاتهم التي استخدمت فقط للرسائل، ولم تستخدم للمكالمات. كان ذلك

باختراق جوّال سالم وكانت الرسائل الواردة فقط لتحديد موعد اللقاء ومكانه.

كان الاجتماع الرباعي، فداهمته قوات خاصة من المستعربين، لم يتوقعوا بأي حال من الأحوال أن يتم رصدهم وتحديد اجتماعهم رغم أنهم استخدموا كل ما تعلموه في هذا الميدان الذين هم متخصصون فيه.

وأصبح لدى المحقق الإسرائيلي مجالاً واسعاً للعب، فالتحقيق مع أربعة أسهل من ثلاثة ومع ثلاثة أسهل من اثنين والعمل الفردي يشكل لهم عقدة كبيرة، لم يكن التحقيق سهلاً مع مجموعة الأذكياء هذه ولكن كما يقولون غلطة الشاطر، وصلوا إلى فكفكة عمل مقاوم لخلية كانت ستنتج عملاً من أعظم أعمال المقاومة، تجهيز طائرة دون طيّار وبرمجتها وتوجيهها بطريقة ذكية إلى هدف ذكيّ.

آنَ لهذا القلبِ أنْ يستريح

تألم طويلاً وعميقاً قلمي في أُسبوعه الرابع عشر، وهو يتقطر مداداً كي يرسم ملامح هذه النفوس النّكدة، كيف صبت جامّ حقدها بسواده النتن على قلوب بريئة لا تعرف هذه اللغة، لنحتمل معاً هذه القصة:

أراد بكل ما يحمل من خبث أن يوجه ضربة نفسية من الوزن الثقيل، تفجرت براكين حقده على إبداع جديد في عالمهم القذر، كانت ضحيته أسيراً مخضرماً باءت كل أساليبهم معه بالفشل الذريع، أراد هذا المحقق من ناحية أن يتنفّس من الكبت المضغوط في صدره، ومن ناحية أُخرى لعله يُحدث ثقباً أو انهياراً نفسياً، هي مجرد محاولة بالنسبة له ولن يخسر شيئاً، حسابات الربح والخسارة هي فقط عندهم من جانب واحد، أما ذلك المعذب لديهم فلا حسابات له عندهم، هو مجرد صرصار أو بعوضة أو حتى ذبابة يتلذذ حذاء هذا الرجل العظيم أن يسحقها ، إنه من شعب الله المختار كما رسخها في صدره الحاخام الذي تربى على يديه.

على رأس قوة مُؤلّلة ضربت أرض القرية من تحت عجلاتها، لا يخترق جدار الصمت في قرانا الآمنة إلا صوت مجنزراتهم في الهزيع الأخير من الليل، حاصروا البيت، فجروا البوابة فإذا بهم يدوسون بأقدامهم فراش النائمين،

هبَّ والد المعتقل لديهم أبو أحمد وفزعت أم أحمد، مُسنَّان يفتحان أعينهم على هذا الجيش المُقتحم للبيت بكامل عتاد الرعب والقهر، أم أحمد في نهاية العقد الخامس من عمرها وأبو أحمد في بداية العقد السادس وقد غزا الشيب لحيته ورأسه، صرخ بهم أبو أحمد :

. ماذا تريدون؟! أحمد عندكم منذ ثلاثين يوماً، هل بقي لكم شيء عندنا؟

تقدم ضابط التحقيق وبإنسانية عجيبة قال بهدوء:

. أهلاً أبو أحمد، كيف حالك؟، نحن متأسفون، لولا أن للضرورة أحكاماً لما جئنا في هذا اللّيل، أتظن بأنّنا نُحبُّ الخروج من بيوتنا ليلاً؟ نحن بشر مثلكم نحب أن ننام آمنين، لكن ابنك أحمد أزعجنا وأزعجكم، المشكلة ابنك أحمد، ابنك هو الذي جرّ عليكم هذا.

ردت أم أحمد بغضب مشتعل في صدرها:

. ابني أحمد لا يضرُّ أحداً، أنتم ترمون جرائمكم على غيركم، هذه عادتكم من أول يوم رأيناكم في هذه البلاد.

رد باستخفاف واستحقار، فهي لا تليق به للرد على كلامها:

. لك عندي مفاجأة أم أحمد، أحضرت لك صورة لأحمد، أكيد مشتاقة لرؤية صورة ابنك.

سحب من جيبه صورة يظهر فيها أحمد بوجه مدبلج قد عبثت بالصورة أيديهم، متورم ومشبع بالضرب واللّكمات التي جعلته أزرقَ وداكناً، وكان أحد

الجنود قد جهز كاميرته للتصوير، رأت الصورة أم أحمد فشهقت وضربت براحتي يديها على رأسها وكان التصوير جاهزاً، صرخت بهم سبّاً ولعناً وتهديداً ووعيداً، أشار لجنوده بالانسحاب. رمى بنظراته الحاقدة إلى أبي أحمد ونعق:

. لنا عودة وعودة أبا أحمد، ابنك اعترف بكل شيء، سيبقى عندنا سنوات طويلة، الحساب لم يغلق بعد.

وكان الجنود قد نبشوا كل شيء في البيت بحجة التفتيش، قلبوا البيت سافله وعاليه، خرجوا مخلفين البيت كأن عبوة ناسفة قد انفجرت فيه، زفرت سياراتهم خارجة من القرية وبقيت رائحتهم الكريهة، بقيت صورة أحمد شاخصة أمام أمه، ماذا فعلوا بولدي؟ ولدي ينازع روحه بين الأيدي المجرمة، ألهذه الدرجة تمتلئ صدورهم حقداً؟! يا حسرة عليك يا ولدي، ها أنت تتلظى في سجونهم من جديد، كالوا لك كل صنوف العذاب، المهانة والشبح ولعنة الوالدين، تنسمّت عبير الحرية بضعة أيام بعد حبستك الأخيرة، جنّ الليل وجاءت خفافيشه، خطفك أحفاد القردة والخنازير، منذ ثلاثين يوماً ولم تر عيناي النوم، نغصوا علينا حياتنا، فهل يعقل أن يفعلوا هذا الفعل؟ أن يقتحموا علينا البيت ليرونا صورة جريمتهم على وجه ولدي، لماذا؟

شاركها أبو أحمد في الدعاء الحارّ عليهم مع الدعاء لابنهما بالثّبات والصّبر، وبعد أن تيقّن الناس من خروج الجيش انهالوا على البيت المنكوب ليواسوا أهله ويتضامنوا معهم .

صباحاً دخل المحقق بإبداعه منقطع النظير ليجس نبض ضحيته، ويلقي

عليها ما أبدع في اللّيلة الماضية، كان أحمد منهكاً قد بلغ به السهر والحرمان من النوم لأيام طوال كل مبلغ، الأعصاب متوترة، الصدر يمتلئ كمداً وقهراً، الدماغ كأنه قد توقف عن التفكير، زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، كان كجيش طالت به الحرب دون أن يكون قادراً على الانتصار أو الانسحاب.

نبح المحقق المبدع مبتهجاً ومتكلفاً الفرح، متسلحاً بالروح الذكية التي يدعيها:

. اللّيلة سيد أحمد كنت عندك في البيت، استكملت التحقيق مع أمك وأبيك، أنت عامل وجع رأس لأهلك، ألا تريد الخلاص لك ولأهلك، ألا تريد إغلاق الملف؟ نخلع الطّاحونة ووجعها.

بلسان متثاقل ردّ عليه:

. أنت تصطاد في الماء العكر، لا يوجد طاحونة ولا وجع، أنت أغلق الملف على براءتي.

. أنت تحلم، عايش في أوهام، أدلتنا قاطعة، طال الزّمن أم قصر ستعترف.

وسحب من جيبه صورة:

. خذ شوف أمك..

وقعت الصورة كالصاعقة على أحمد، رآها وهي تضرب بكليتي يديها على رأسها، فزع من نعاسه وكأن أفعى كوبرا قد لدغته وانطلق لسانه صارخاً:

. يا سادي يا مجرم، أبَلَغَ الإجرام بك هذا الحد، ماذا قلت لها؟ ماذا فعلت حتى تلتقط هذه الصورة.

وفلت اللّسان بلا حدود، كان الصدر يفيض غيظاً وكانت هذه الجريمة بمثابة الصاعق الذي فجّر القنبلة، لم يترك مسبة ولا تهديداً ولا وعيداً إلا ألقى به في وجهه.

فزع المحققّون على صراخ أحمد، وجاؤوا من حجرات التّعذيب التي يمارسون فيها هواياتهم، تقدم كبيرهم في الإجرام وحاول تهدئة أحمد دون جدوى، ثم انتقل به إلى حديقة خارجية وهو يتعهد أن يعالج الأمر ويعاقب هذا المحقق على ما فعل، وادعى أن هذا الإجراء لم يكن بأمر من القيادة وإنما على عاتق هذا المحقّق، ردّ أحمد:

. فليكن هذا أمراً شخصيّاً بيني وبينه، لو حدث مكروه لأمي فلا يلومنّ إلا نفسه.

. لن يحدث أي مكروه، سنطمئنك قريباً على أمك وأبيك لا تقلق.

سأل أحمد بتهكم:

. كيف؟ تقتحمون البيت مرة ثانية لالتقاط صورة أقل فظاعة!

. أنت قلت لي كيف، أنا أقسم على تنفيذ ما تريد إن لم يكن هناك خطر أمني.

. عندي طريقة، أتصل بها هاتفياً.

. هذا مستحيل، ممنوع مخالف للقانون.

. أما ما فعله صاحبك فيسمح به قانونكم؟! أن يروّع مسنّة بطريقة جهنّمية ثم يصورها وهي في حالة مريرة ويحضر لابنها المعذب عندكم الصورة، هذا

غير ممنوع عندكم؟! يُسمَح لكم استخدام مشاعر أُمّ في حربكم القذرة هذه؟!

. اسمع، على عاتقي الشخصي سأفتح لك خطاً تطمئن على أُمك بشرط أن تهدأ وتعود للتحقيق من جديد.

سحب الهاتف الخلوي من جيبه، ضرب على الرقم، سمع أحمد أباه على الخط، طلبَ المحقّق أمه وقدم الهاتف لأحمد، تحادث أحمد مع أُمه، وحذّرها من فعل الشياطين، قال: إنه بخير ومعنوياته عالية، قريباً سيطلق سراحه لأنه لا يوجد لديه ما يستدعي الحبس، وسمع قلبها يخفق عالياً وهي تدعو له بالثّبات وتحقيق الانتصار على هذه الفئة المجرمة.

تمكن أحمد من مكالمة ثانية مع والدته، بعد أن انتهى من التحقيق ودخل السجن سنحت له فرصة الاتصال من خلال هاتف مهرب، ناجاها وسمع نبرات صوتها تتكسر إشفاقاً وحبّاً ولوعة، بث في مكالمته السريعة شحنات عاطفية سريعة ما استطاع لذلك سبيلاً.

بعد ليلة من الذكريات القاسية وما فعله القريب والبعيد بفلذة كبدها، الصعقات ذات الحجم الكبير التي لم تعد يطيقها قلبها الكبير، الانتظار وترقب الخطر الآتي، الأيام الثقيلة التي تجيد التمركز مكانها قبل أن تتبدل بيوم جديد ارخت بظلالها على كاهل هذه الأُم العظيمة، حياتها كلها فراق الأحبة وأخبار عذاباتهم والصبر الجميل. تاقت روحها للقاء بارئها وللذهاب هناك حيث سعادة أبدية لا ينازعها فيها أحد، آن لهذا القلب أن يستريح.

هذه المكالمة الأخيرة، أعاد رقم البيت الاتصال فرد عليهم حارس الهاتف

المهرب وعلم الخبر، وكان خبراً قاسياً مزلزلاً على أحمد، فاضت عيناه دموعاً وآلاماً متواصلة بلا انقطاع، يتخيل نفسه وقد أطلق سراحه فلم يجد أمه، كل مرة يجدها في انتظاره على بوابة السجن، كم ستكون الدنيا مظلمة دون أُمه! وكم سيكون ظلامها حالكاً! لا طعم للخروج من السجن بعد اليوم، تمنى لو طال به السجن مع بقاء أمل لقاء الحبيبة الغالية ولكن لا مفر من أمر الله، وكانت كلمات إخوانه الأسرى تتمحور على أجمل عزاء.

رحلت إلى جوار أرحم الراحمين إلى الرفيق الأعلى في مقعد صدق عند مليك مقتدر بإذن الله.

ستة خراف !!

في الأُسبوع الخامس عشر كان لقلمي أن يتعثر بهذه القصة الغبية، تردد في كتابتها وحسم أمره أخيراً لكثرة ما يتدهورون بغباء، إليكموها:

اضطر للاتصال بأحد عناصر المجموعة، كانت من الممنوعات والمحظورات الشديدة التي تعاهدوا عليها فيما بينهم: أن لا يقوموا بأي اتصال على الهواتف الخلوية، ذكية أم غبية ... ممنوع استخدامها في العمل التنظيمي، وكانوا على وعي تام بعواقب استخدامها الوخيمة، كانوا يتعوذون منها كتعوذهم من الشيطان الرجيم، وكانوا يدركون تماما بأنها جواسيس وعيون وعسس لا ينبغي أن نمكنها من رقابنا.

كان اللّيل يوشك أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، وكان لابدّ من إفراغ السيارة من حمولتها قبل بزوغ الفجر، السيارة عليها مهمات في صبيحة تلك اللّيلة، ولابدّ من تسليم البضاعة الليلة.

وكان عيد الأضحى على الأبواب ننتظره بشوق وحنين لطقوسه وتكبيراته التي ترتفع بأرواحنا عالياً، جاءت فكرة، أتصل بصاحبنا كي ينتظرنا لتسليم البضاعة وأرمز بكلام من وحي ما نحن بصدده، لن يلتفت أحد ممن

يحشرون أنوفهم بين كلماتنا، مألوفة وتنسجم مع طقوس العيد، خالفت التعليمات وأجريت الاتصال..

. السلام عليكم سيدي.

. وعليكم السلام ورحمة الله، خير إن شاء الله..

. أعتذر عن هذا الاتصال المتأخر، ولكن حصلنا على أضاحي لك كما وصيّتنا، عندي ستة خراف روماني، أما البلدي فسنحضرها بعد العيد، هل أنت جاهز؟ الخراف في السيارة وأنا قادم إليك.

. لو تؤجل الموضوع صديقي، النعاس يكاد يقتلني، أجلها للغد، نلتقي غداً ونتفاهم إن شاء الله.

. صديقي ما في مجال، أنا في الطريق إليك.

وقطعت عليه الخط حتى أضعه تحت الأمر الواقع، اللّيل يلقي ظلاله الثقيلة ، كنت أسير مسرعاً في غسق اللّيل، يقولون عن الليل أبو ساتر، لا أحد غيري في هذه الشوارع ، خالية من كل شيء، لا ناس ولا سيارات، أنا والشجر والحجر والسيارة تمخر بصوتها الخشن دون أن ينازعها أي صوت آخر، أخرجت عجلاتها كل ما فيها من طاقة، فَعَلْتُ المائة وعشرين حصاناً بشكل كامل ليضخ محركها كل ما بوسعه من جهد، وكان لساني يلهج بالدعاء والنجاة ...فهذه البنادق الست رأس مال كبير في هذه المنطقة، وكفيلة بأن تقضّ مضاجع الاحتلال خاصة إذا سلّمت لسواعد مخلصة ومدربة، وهذا متوفر بفضل الله، بقي أن تصل سالمة لأصحابها.

وكانت هواجس غريبة تجتاحني من عمق الصمت الذي يلف المكان، ألم نتعاهد على ألا نستخدم هذه الأجهزة اللعينة؟! ولكني لم أكلمه بلغة مباشرة، ما أحلاك لو كان الحديث مباشراً! ولكن هذا الترميز في هذا الوقت من الليل الأخير!! قرون الاستشعار شديدة الحساسية والتي تراقبنا ليل نهار، إن غفلت عنهم فإنهم لا يغفلون تماماً هم كالشياطين، توكل على الله يا رجل، أنت تواكلت، التوكل يعني عدم التقصير في الأسباب، وأنت قصرت وخرجت عن قواعد العمل، سترك يا رب.

رنّ الخلوي، كان رقم صاحبي، أكيد يريد أن أعود أدراجي، أعرفه تماماً إنه حذر لدرجة الهوس، صحيح أنه صاحب خبرات أمنية وأسير سابق، ولكن الأمن إذا زاد أصبح هوساً!؟ قطعت من الطريق ثلثيها وبقي الثلث، عشر دقائق وأسلمه البضاعة، وأعود لقواعدي سالماً بإذن الله.

كنت في أقصى سرعتي وعلى مشارف نهاية طريق صاعد، بعدها تنكشف الطريق انتهيت منها فانكشفت على مجموعة جيبات عسكرية، دعست على المكابح لأقف وأحاول الرجوع فإذا بي وسط الحاجر العسكري الذي أقاموه، مجموعة كالكلاب المسعورة، فتحوا أبواب السيارة، سحبوني منها بعنف، قيدوا معصمي للخلف، انطلقت كلابهم للسيارة وأنزلوا ست بنادق، جاءني ضابط، وقال ووجهه يكاد يقطر فرحاً:

. هذه ستة خرفان رومانية! بقي الستة البلدية يا بطل.

ليعلموا أن اللّه حقّ، جماعة ال VIP

ضحك قلمي من أعماقه هذه المرة وهو يتابع قصة الأُسبوع السادس عشر، قل عنها نهفة أو مقلباً أو نكشة رأس... المهم كانت لي استراحة كاتب:

في يومه السبعين وهو يتشظى في زنازين الاحتلال خطرت في باله فكرة جهنمية، هؤلاء الذين لم يتذوقوا طعم الأسر ولم تتحرك مشاعرهم مع الأسرى ، بل إنهم يتعوذون منهم حرصاً على ما أعطاهم الاحتلال من امتيازات تلخصها هذه الحروف الساحرةVIP، شخصية مهمة عند الاحتلال تعني الكثير، حرية السفر والتنقل بطرق مريحة تميزهم عن بقية الشعب ، لا يمرون بحواجز الاحتلال ومفارز العذاب إلا مرور الكرام، ولهم أن يسافروا داخل فلسطين المحتلة ودخول القدس وقتما شاءوا، وهناك أيضا درجة أعلى وأجل : بطاقة تسمى PMC وهذه تتيح لمن يحظى بها ميزات أعلى وأجل من الـ VIP:.

سبعون يوماً من الضغط النفسي وجولات التحقيق القاسية، لم يتركوا أسلوباً من أساليبهم الخبيثة إلا وأشهروه في وجهه، بلغ حافة البوح عدة مرات لولا إيمان رسخ في قلبه وعزيمة لا تلين اعتاد عليهما، حملهما في صدره من حبساته السابقة، لم ينبس لهم ببنت شفة.

ملّ هذه الرتابة القاتمة، ضوء الزنزانة الخافت وجدرانها التي تفوح منها رائحة العذاب، زبانية الزنازين برائحتهم النتنة وهمهماتهم الخشنة، مكاتب التحقيق التي اعتاد المحققون فيها على الكلمات نفسها، والدراما الفارغة من كل شيء، وجولات تحقيق يتردد فيها المزنزن ما بين من يمثل اللين والمنطق بسماجة لا حدود لها، وبين من يمثل القسوة بفظاظة لا نظير لها.

أحبّ أن يخرج عن هذا النص الذي صاغه راوٍ لا علاقة له بأدب الرواية، عادت به ذكرياته إلى من كان يدير الشركة التي كان مهندساً رائعاً فيها، خرج من السجن ليجد نفسه مفصولاً، لم يكلف أحد خاطره أن يهنئه بالسلامة بعد حبسة دامت خمس سنوات، لم يكلف أحد منهم خاطره أن يرسل ممثلاً عن حضرته ومقامه السامي، ولا حتى إرسال رسالة أو اتصال هاتفي، فقط وجد كتاب الفصل ينتظره، في حينها علق بجملة سريعة ولم يعقّب.

. هؤلاء لا يعرفون معنى أن تكون أسيراً.

والآن حتى يغير من الدراما الكئيبة لهذا التحقيق، وحتى يعرّف هذه المجموعة معنى السجن لا بد من هذه الفكرة الجهنمية، أن أعترف عليهم بشيء يؤدي إلى اعتقالهم ودخولهم هذه الزنازين أن يخرجوا قليلاً من عالم المكاتب الفخمة والسيارات الفارهة والبدلات الرسمية ذات المقام العالي، أن يجربوا زيارة هذا العالم ولو لأيام معدودات، لم يكن فصلي بسبب أزمة مالية فالشركة غنية وأموالها تتكاثر كتكاثر الفطر، كان بإمكانهم تبني مجموعة من الأسرى غيري ولكن خوفهم وهلعهم أن تسحب منهم بطاقات مرضاة الاحتلال ال VIP PMC،، هي ذات المعادلة : من يحصل عليها:

عليه أن يبقى منبطحاً وأرنباً للاحتلال خوفاً عليها، وكذلك من يطمح أن يغدقوا عليه بها فيدخل بذلك نادي الاحتلال.

عزم أمره ورتب اعترافاً متقناً ليعلموا أن الله حق، ومع أول جولة تحقيق فجّر القنبلة، مَثَّلَ كما يمثلون بأنه قد تعب وملّ حياة الزنازين لذلك قرر أن يقص القصة:

. كلفني مجلس إدارة الشركة تجنيد أموال لدعم رأس مال الشركة، حثني الاستفادة من علاقاتي التنظيمية، وافقت على ذلك.

وبدأ سيل الأسئلة:

. من مِن المجلس؟

. كلهم، وعددهم فرداً فرداً بأسمائهم الرباعية.

أفردوا لكل واحد منهم ملفاً، معلومات كاملة، الاسم والعنوان وموقعه الوظيفي، إلخ.

. مع من كان اتصالك؟

. لم أقتنع بالفكرة رغم أني وافقتهم، قد يكونون وكّلوا آخرين غيري.

. من؟

. اسألوهم..

شممت رائحة جديدة في الزنازين، هلت أصحاب المقامات وبطاقات ال VIP

عرفت بعضهم، وأنا في طريقي من التحقيق إلى الزنزانة وبالعكس، كانوا مشبوحين في الممر وتسمع لهم همهمة وكحكحة، واحلّوت الحبسة، امتلأ قلبي فرحاً اشتقت إلى مثله منذ خطت قدماي هذه المحطة العاتية.

تركوني أسبوعين وأنا تائه في عالمي الخاص، كنت أشعر أني وصلت واحة خضراء، أستظل بظلها واستمتع بنعيمها بعد عناء الصحراء المرير الذي استغرقني سبعين يوماً.

وكان لا بد من المواجهة، طلبوني فجاءني أحد زبانيتهم وجرّني بعنف، كنت قد حضرت نفسي للحظة الانسحاب، وصلت إلى هدفي، عرفوا أن الله حق، وعلموا حق اليقين ماذا تعني السجون، ماذا يعني أن يخرج الأسير من سجنه فيجد قرار الفصل قد جهزوه له كهدية ومكافأة سخية من وحي ال VIP الذي يسكن قلوبهم، كان الميجر مسؤول التحقيق، وقد شحذ عيناه ليرى المشهد بعمق، وكان هناك مجموعة من المحققين، بين أيدهم رئيس مجلس الإدارة، يتدلى كرشه أمامه وتصغي صلعته إلى ما تقوله أقدامهم، كان منظره، مهيناً، ممتلئاً غيظاً وقهراً وكأن مصائب الدنيا جاءته مجتمعة، وقد صبّت فوق رأسه دفعة واحدة.

هتف الميجر بحسم: أجب عن سؤالنا، نعم أم لا؟

قلت شامخاً لإيصال رسالة وأضخ جرعة من الشجاعة والكرامة في صدر هذا وأن هؤلاء بشر يرد على كلامهم بل وأكثر من ذلك:

. أنا لا أتعاطى مع هذا النوع من الأسئلة، إذا احتاجت الإجابة إلى شرح

وتوضيح فسأقوم بالواجب

رد متبرماً:

. اتركنا من فلسفتك وأجب عن السؤال.

. أنا لا أتفلسف، تعلم إذا اقتضى الأمر من حقي أن أمتنع عن الكلام وأقرر إغلاق وزارة الإعلام.

هال هذا الحوار رئيس مجلس الإدارة، كانت عيناه تتنقلان وتدوران مسرعة بين الميجر وبيني، جسده جامد ثابت يجسد الطاعة والامتثال لهم أكثر من اللازم بكثير، وبينما هو الآن يرى علياً بهذا النقاش كأنه يفجر ثورة في وجوههم، أفاق من ذهوله على صوت الميجر يتنازل أمام علي ويترجاه:

. أرجوك علي، لك ما تريد، أجب عن سؤالنا كما تريد.

أجاب عليّ بثقة واعتداد:

. تفضل لك أن تسأل.

. أنت اعترفت لنا بأن مجلس الإدارة قد كلفك بتجنيد أموال من خلال علاقاتك التنظيمية، فهل هذا صحيح؟؟

. بصفتي كنت المسؤول في التشبيك مع المنظمات الدولية ومن خلال موقعي الإداري في الشركة كلفوني أن أتواصل مع هذه المؤسسات الداعمة والمستثمرة في مجالات العمل والأنشطة والمشاريع التي تقوم بها الشركة، وكان هذا قبل أن يقوموا بفصلي من العمل.

ونظر عليّ إلى رئيس مجلس الإدارة بشذر واستخفاف وهو يتلفظ بالجملة الأخيرة.

أسقط في يدهم، دفعوني بعنف خارج مجال الرؤية المتهالكة لرئيس مجلس الإدارة حامل بطاقة PMC، أعادوني إلى زنزانتي لأعيد المشهد على شاشة قلبي وأتمتع برؤيته أياماً وأياماً.

سيماهم في وجوههم

قلمي في أُسبوعه السابع عشر عاد إلى حالة من البلادة والإحباط وجاهد نفسه طويلاً وهو يناجي أبا محمد كما كنّى نفسه في القصة، نفث له حزنه وشجونه القاسية، وهو يتألم لعودته إلى السجن بعد كل الدروس الأمنية التي تلقاها، ولا بد للقلم في النهاية أن يكتب وأن يبدأ القصة من بدايتها:

اشترى باسل نجيب هاتفاً خلوياً من النوع الأثري من سوق المستعملات في الخليل بالبلدة القديمة، واشترى شريحة سيلكوم من حلحول، أرسل رسالة إلى صديقه القديم من غزة الذي عاش معه سنوات في السجن، لم يذكر اسمه في الرسالة عرفه بنفسه من خلال إشارات تدل على هويته إمعاناً في السرية المطلوبة.

. كيف حالك أيها الحبيب، معك أبو محمد، من كان يغلبك في الشطرنج وينقضّ على جنودك المتهالكين، أتذكر المتهالكين؟

.آه عرفتك يا غالي، ما هي أخبارك؟ والله أيام، كانت بالفعل رائعة.

.الحمد لله كله تمام، لازم نشحذ الهمة، أحتاج من يساندني، أنتم أهل السبق.

. على طول الخط، نحن جاهزون، لك منا كل الاحترام يا صاحب الهمة العالية.

. لنبق على تواصل، قد اضطر من خلال شريحة ثانية.

. ما رأيك أن نتحادث؟

. لا، أرجوك، أخشى من بصمة الصوت، رسائل تكفي.

ثم شيئاً فشيئاً أصبح تواصلهم ساخناً، بعد أيام عرض صديقه الغزاوي أن يرسل إليه شخصاً ثقة ذا بمصداقية عالية وذلك للاطلاع على احتياجاته وتزويده بكل ما يلزمه لمواصلة العمل، حددوا الموعد من حيث الزمان والمكان.

كانت الدقائق تطرق طرقاتها وهي تمضي متسارعة على قلب باسل، وتعيده إلى حياته الجميلة أيام الانتفاضة والمغامرة، شعر بأن الشباب يسري في أوصاله من جديد، سيقوم بالواجب في وجه الزحف الحاقد لقوات الاحتلال وقطعان المستوطنين، أبعدته ظروفه المعيشية القاسية وأغرقته في أتونها التي تبدو لا نهاية لها، أعاد ترتيب أولوياته من جديد وكان لنداء الوطن فيها نصيب بل حصّة الأسد، ما أعظم أن تتبوأ القضية مكانتها العالية في صدور الأحرار!

كان المستوطنون يعربدون في الشوارع العامة، كل يوم لهم عربدة على أحد المفارق، يعرقلون حركة السير إلى أن يأتي الجيش فيتناغم معهم في القمع وتعكير الحياة الفلسطينية بفنون شتى، المستوطنون يغلقون الشارع بالحجارة فيأتي الجيش متلكئاً ليتفاوض معهم ببرودة أعصاب متناهية

لتمضي ساعتان أو ثلاث بينما السيارات العربية بالآلاف تنتظر الفرج.

جاءت رسالة على ذات الشريحة بتأجيل الموعد والانتظار يومين، ثارت الهواجس، مارس واجب التماس الأعذار، وكان باسل في قرارة نفسه يتصرف بكل حذر ودقة في أي إجراء يقوم به، كل حركة أو حرف وارد أو صادر يذهب به إلى أبعد مدى على محمل الجِد. ماذا يعني تأجيل الموعد؟! هل دخل طرف ثان على الخط وسيطر مع الشريحة المرسلة، يريد أن يرتب موعداً آخر لأقع في شركهم؟! المسألة تحتاج إلى انتباه وحذر شديدين.

شارع حلحول دائماً يعج بالحركة، السيارات تتحرك بكثافة بالاتجاهين، الحركة التجارية والمطاعم لا تتوقف عن استقبال الزبائن، جيب عسكري يسير وحده بخوف وجزع، ولكنه يريد أن يرسم المشهد وكأنه يسير مطمئناً بأمان وسلام.

لم يعد باسل يطيق هذا المشهد الجبان، لا تكفي العيون الغاضبة، ولا تكفي اللّعنات التي تخرج من فوهة كاتم صوت، يجب أن تختلف لغة هذا الشارع الحي، شارع له تاريخ عريق في عنفوان الانتفاضة والمقاومة.

رسالة جديدة تحدد الغد تمام الساعة التاسعة مساءً، في مطعم معروف في حلحول على الشارع العام للقاء هذا الأخ الذي سيتواصل معه ويمده بما يريد، إذن دقت ساعة الصفر عند باسل وأصبح قاب قوسين أو أدنى من تحقيق ذاته الوطنية من جديد.

وتواردت الرسائل تباعاً، طلبت منه رسالة رفيق الجهاد أن يأتي بقميص

أبيض يحمل في يده كيساً صغيراً، ورسالة ثانية حددت ملامح شخصية الاتصال وشاب يلبس قميصاً أزرق يجلس على طاولة سيتناول الكنافة فقط، الشاب ذو لحية طويلة، شارب خفيف، جبينه يظهر عليه علامة السجود، أشقر الشعر.

حل الموعد... ذرع باسل المكان ذهاباً وإياباً ثلاث مرات دون أن يدخل المطعم، ينظر من بعيد داخل المطعم، ويطوف بعينيه على المكان، يحاول اكتشاف أي شيء مريب ويدقق في السيارات الواقفة أمام المطعم، وبحركة الناس، يمعن النظر داخل السيارات ويقتحم بعين صقر نوافذها علّه يجد متربصاً.

لمح شاباً يجلس منفرداً، لم يكن بقميص أزرق كما تم تحديد وصفه في الرسالة، مّوه في قميصه ولكن يحمل كل المواصفات التي ذكرها، شاب ملتح سيماه في وجهه من أثر السجود، وتعمد باسل أيضاً أن يموّه فلم يلبس كما ذكر له صاحبه قميصاً أبيض، ولم يحمل في يده كيساً وكانت هناك أيضاً طاولتان على كل واحدة ثلاثة زبائن، لم يكن هناك ما يثير الريبة، توالت الرسائل،

. أين أنت؟

. على بوابة المطعم. كنت في حينها أبتعد.

. الشاب في الداخل بانتظارك.

. دقيقة واحدة.

. طلب لك كنافة، تفضل صحتين وعافية، أين صرت هل دخلت المطعم؟ اسأل

عن أبي علي.

دخل باسل حذراً متوجساً من مفاجأة، أمر غير متوقّع، هو هكذا دائماً يتوقع الأسوأ ويأخذ حذره منه، طلب من صاحب المطعم إذناً لدخول الحمام، مرّ عن الشاب، نظر إليه نظرة عابرة، لم يستطع أن يحسم، عليه علامات صلاح مبالغ فيها، خرج من الحمام وجد شاباً كأنه لم ينتبه إليه من قبل ينفرد على الطاولة، ملتحياً وأشقر، سأله:

. أنت أبو علي؟

. لا يا أخي.

. أعتذر، شبهتك بشخص أعرفه.

رسالة جديدة تتحرك في جيبي، توجهت للملتحي الأشقر الذي كان يرمقني بطرف عينه.

تحرك الجوال برسالة جديدة.. تقدمت خطوة لهذا الأشقر الملتحي وقلت:

. السلام عليكم، رد بلكنة غريبة

. وعليكم السلام.

هممت بالتراجع والانسحاب، قفز الملتحي، سحب مسدسه ووضعه في رأسي، اندفع الذين على الطاولتين المجاورتين، كانوا ستة بستة مسدسات، أمروا الناس برفع الأيدي للأعلى، دفعوني أمامهم وسقط الجوال من جيبي ضربته بقدمي بعيداً، سارع أحدهم بالتقاطه، ثوان وكنت في إحدى سياراتهم

والقيد في معصمّي، وانطلقوا بي إلى حيث الزنازين والتحقيق والاعتقال من جديد.

اكتشفت أن إلغاء الموعد الأول الحقيقي، وترتيب الموعد الثاني كان بعد اختراق الشريحة التي أتواصل معها، وكانت الرسائل من شلومو بدل صاحبي، أو أن رقم هذه الشريحة كان بين أيديهم منذ زمن الاتصال، منذ البداية كانت مخترقة.

وهكذا اصبح جاسوسا (١)

في الأُسبوع الثامن عشر صافح قلمي هذه القصة لشاب أراد أن يتذاكى فسقط:

جاءه حارس يحمل سلاحاً بملابس مدنية، وبلغه بأنه ممنوع من السفر، دون إبداء الأسباب:

. ارجع ... أنت ممنوع من السفر. هاله الأمر، ارتعب وسأل:

. من الذي منعني؟ هل لي أن أقابله؟

رفع الحارس عقيرته وأعاد جملته بنفاد صبر واضح:

. ارجع أنت ممنوع من السفر.

كان هذا بعد أن وصل نافذة ختم الجواز الساعة العاشرة صباحاً، قالت له الصبية الشقراء: اقعد على كرسي والآن الساعة الواحدة بعد منتصف اللّيل، وكلما توجه إلى النافذة وسأل يقال له: اقعد على كرسي.

كيف مرت عليه هذه الساعات الطوال؟! شاب في بداية انطلاقته للحياة،

فارع الطول هادئ الملامح، تبدو عليه علامات الجدّ والمثابرة وقسمات وجهه الحنطي توحي بالذّكاء وسرعة البديهة، صبر وصابر وتصبّر وهو يعد هذه الساعات، ذهبت به بعيداً وعادت، شرّق وغرّب وسبح في عالمه القديم والحاضر والمستقبل وكانت آماله تتضارب مع تخوفاته، اجتاحته هواجس كثيرة وهو جالس يترقب ظهور أحد يستدعيه أو يسمع اسمه من إحدى النوافذ، وكان يرسم كل الاحتمالات المقبلة عليه بعنف:

. ماذا لو بالفعل منعوني من السفر؟ رأيت هذا المشهد مع غيري كثيراً، كنت أقول إن هؤلاء من أصحاب السوابق، مشاغبون، لهم مشاكل مع الاحتلال، حضرتي عمري ما تحرشت بالاحتلال، سليم مائة بالمائة، نظيف كما يقولون، لماذا يمنعونني من السفر إذاً؟ لم أفعل شيئاً يمسّ الاحتلال لا من قريب ولا من بعيد، بل بالعكس حريص كل الحرص على تجنب الشّبهات والمشبوهين، ماشي الحيط الحيط وأقول يا رب الستيرة راجع يا عادل علاقاتك في البلد وفي الجامعة، هل هناك مشاركة في أي نشاط، مسيرات نددت بالحرب على غزّة لم أشارك فيها رغم أن أغلب طلاب الجامعة شاركوا فيها، يوم الأسير ويوم النكبة وكل وقفات التّضامن لا تعنيني ولا أفكر مجرد تفكير بالذهاب إليها، ماذا دهاهم؟!! ماذا يريدون من هذا المنبطح؟! من هذا الجبان الذي لا اهتمام لديه لوطن أو دين أو أي شيء عام.

الساعة الواحدة بعد منتصف اللّيل جررت ذيول الخيبة لأمر بأريحا النائمة مستغلة نفساً فاتراً يتسلل إلى سعير نارها القاتل، ومن هناك أخذت سيارة لترتقي بسرعة مخيفة المنحدرات بين أريحا الغارقة تحت البحر إلى حيث الجبل ورام الله في الأعالي.

كان سائقاً محترفاً ومتهوراً ولم أعد أبالي بعد هذه الرحلة الشاقة لو طاح بنا في واد سحيق من وديان تلك الأغوار، غرزوا سيف القهر في جسد لا يحتمل، كانت صدمة لم أكن قد استعديت لها... تركوني أغدو وأروح أربع سنوات حتى إذا وصلت الفصل الأخير ظهروا لي بسيوفهم القاتلة: ارجع فأنت ممنوع من السفر.

أعدت الكَرَّةَ خلال أسبوع ثلاث مرات، كل مرة أقول لعلّ وعسى، قد يقابلني هذا الذّي يقرّر ويجلس في عمق الجسر، لا يريد أن يريني وجهه ولا يريد أن يراني، هكذا بين عيشة وضحاها صرت من المغضوب عليهم، لماذا؟ لا أدري، كل مراجعاتي في هذه الوقفات الطويلة لم أجد ما تشوبني شائبة، سائر على صراطهم الذي رسموه، أمشي على عجينهم ولا أخربطه.

في المرة الثالثة تصدق عليّ الحارس الذي يحمل سلاحاً بعد أن أمرني بالرجوع بورقة، سألته ما هذا؟ فقال:

.روح قابل المخابرات.

حسب الموعد المحدد في ورقتهم توجهت إلى عوفر حيث مخابراتهم، وجدت شباباً مثلي ينتظرون على بوابة عسكرية ينتصب خلفها برج مراقبة فيه جندي يرمقهم بغضب وحذر، وخلفه جدر إسمنتية واضح أن خلفها ما خلفها... أشجار سرو عالية وصوت غربان تنعق.

أشار إليَّ شابٌّ بوضع هويتي على البوابة، نزل الجنديّ من عليائه، تناول الهوية وأرسلها خلف الجدران وجلست أنتظر، وبدأت الساعات تمر ببطئها

المعهود في هذه الأماكن، كانت العقارب تبدو أنها تعود للخلف، وكانت وجوه المنتظرين تتلون، هناك من ينتظر منذ خمس ساعات وهناك من يحدث ويقول للمرة السابعة آتي للمقابلة ويؤجلونني المرة تلو الأُخرى، لا حساب لأوقاتنا عندهم وصاحب الحاجة أعمى، تذكرت عند هذه الكلمة حاجتي، شهادتي الجامعية الآن، مستقبلي بيدهم، وكلٌ له حاجته.

بعد ثلاث ساعات سمعت اسمي يلوكه الجندي بطريقة مثيرة للسخرية، اندفعت نحو البوابة، عوى وأمرني بالتوقف ثم طلب مني رفع القميص للأعلى ثم الاستدارة، يريد التحقّق من أني لا أحمل سلاحاً لا أبيض ولا أسود، تقدم وفتح البوابة وطلب مني الدخول فتشني ومرر يديه على كامل جسدي ثم قادني إلى درج يرتقي نحو بوابة في الجدار الإسمنتي الرمادي ، دخلت فحصاً إلكترونياً ثم غرفة أسلمني فيها الحارس لآخر ،هذا بدوره طلب مني خلع كل ملابسي، لبس قفازين كي لا يتسمم من الجسم الغريب الدّاخل إلى فضائهم ، فحص ملابسي قطعة قطعة بيده وبالفاحص اليدوي، وتفقد حذائي بكل دقة كأنه يفترض بأن هناك قنبلة مزروعة في مكان ما في ملابسي وجسمي، نصف ساعة وهو يمرر إلكترونياته على مساحات جسدي الشاسعة، لأول مرة أكتشف أن لدي كل هذه الإمكانات لأكون خطراً في جسدي وملابسي.

بعد مراسم التفتيش المذهلة، اقتادوني إلى غرفة مكتب لأنتظر ساعة إضافية كمزيد من الإرهاق النفسي، تمنيت لو أني لم آتِ لهذه المقابلة، ولكن كما قالوا: صاحب الحاجة أعمى، والنكتة أن كل من يمارس عليك طقوس الإذلال هذه يعتذر لك قبلها وبعدها، كنت كأعمى يتلقى الضربات من غير

أن يحدد مصدرها، من هذا الذي يصمم صنوف العذاب هذه على الشعب الفلسطيني؟

وصل المخابرات أخيراً شاب وسيم مبتسم، يتقن لغة الجسد التي يستخدمونها في التودد وإظهار الصورة المحببة والمشرفة رغم الحجم الهائل من الخبث الذي تحتويه نفوسهم.

سلم بحرارة وكأننا أصدقاء، وكأننا على طاولة في مقهى شعبي، يسأل ويجيب، وبين كل إجابة أربع ابتسامات، واضح أنه يريد كسر الحاجز الجليدي الذي يرقد في أعماقنا ، يريد أن يوصل بأن المخابرات بشر محترفون وأنهم دمثون، يثرثرون، يمزحون، يسرّون البال وبإمكانك أن تقضي وقتاً ممتعاً معهم، أظهر بأنه يريد أن يطمئن على أحوالي وأكد أنهم يريدون للفلسطينيين حياة رغيدة وسعيدة، لا أدري كيف وهم رابضون على صدر كل فلسطيني حاربهم أم لم يحاربهم وأكبر دليل على ذلك ما حدث معي، وكأنه كان ينتظر سؤالي وقد أعدّ له عدته،. سألت بهدوء قاطعاً عليه تحليقاته وتأملاته:

. ولكن لماذا تمنعونني من السفر؟

أجاب مستغرباً:

. نحن؟ مستحيل، أنت رجل محترم؟ شاب جامعي من أحسن الشباب، لماذا نمنعك؟

. لقد أعادوني عن الجسر ثلاث مرات!

. أنا أعتذر لك، فقط كان مجرد إجراء بسيط كي تأتي هنا ونتعارف.

. ها قد تعارفنا، لتأذن لي، عليّ اللّحاق بالجامعة، بعد يومين لن أستطيع التسجيل ، أرجوك هذا آخر فصل لي.

. هذا سهل، لا تقلق نحن أصدقاء، صحيح؟

حرت في الإجابة، هل أصبحنا أصدقاء بالفعل، سرت خلفه كالمضبوع لا حل أمامي إلا أن أتبعه:

. نعم نحن أصدقاء.

. أمورك كلها تمام ستكون سهلة، ستسافر، ستتخرج من الجامعة وتفوز بشهادتك، لن نقف حجر عثرة أمام سعادتك، بل سنسهل كل ما يسعدك طالما أننا أصدقاء.

بدأت كلمة أصدقاء كخنجر مسموم ينغرس في قلبي.

. نصف الشعب الفلسطيني وأكثر نحن معه أصدقاء، كل من يريد أن يعيش حياته هو صديق لنا، ألا يكون مخرباً للسلام وألا يدعم مخرباً.

. والله عمري ما كنت مخرباً ولا دعمت مخرباً.

. لذلك نحن أصدقاء. فقط بعض النّوايا الحسنة لتثبيت هذه الصداقة، من حق الصديق أن يحافظ على أصدقائه، سأوفر لك خدمات جيدة، ستسافر وقت ما تريد، أي مساعدة تريدها سنحققها لك، وبالمقابل كي تحافظ على صداقتنا ما المطلوب منك؟

إلى أين يقودني بكلامه؟؟

. اسمع حبيبي، نحن بصراحة، لا نريد منك شيئاً، لسنا بحاجة إلى خدمات، عندنا ما يكفي وزيادة.

وكأنه يُنكّت بسماجة

. عملاؤنا يعانون من البطالة، لا يوجد ما يقدمونه لنا، كل المعلومات التي نريدها موجودة تحت متناول يدنا، أنتم حبيبي مجتمع مكشوف، الواحد لما مرته تطبخ مقلوبة يصورها على الفيس بوك ويكتب : يسّلم إيديك يا مرتي. اسمع صديقي عادل، نريد فقط إثبات حسن نية، غداً انتخابات مجلس الطلبة في جامعة بيرزيت، اذهب كزائر وأحضر لنا ثلاثة أسماء نشطاء من الكتلة وثلاثة أسماء نشطاء من الشبيبة، إذا أحببت الآن أريك إياهم على الفيس بوك صوتاً وصورة، ولكن أريدها منك لإثبات حسن نيتك وعربون صداقة بيننا، وبعد غد تحمل حقيبتك وتسافر، الظهر تكون في الجامعة الأردنية حبيبي .

نهض وقال: دعني أُحضر القهوة.

تركني والعرق يتصبّب من جبيني رغم أن الغرفة مكيفة، ماذا يريدني هذا الرجل؟ جاسوساً!! ولكن إذا رفضت وقلت لا فالنتيجة سأصبح من المغضوب عليهم، ما في سفر ولا جامعة ولا ما يحزنون وعلى نفسها جنت براقش، اخرج يا عبقري من حلولك الجهنمية، طالما أنه لم يطلب شيئاً وموضوع جامعة بيرزيت معروف لكل الناس، إذا خذ بالمثل: بوس الكلب من ثمه وخذ حاجتك منه، سأعرفه من الفلسطيني، هو يريد أن يضحك علي! لماذا لا أضحك عليه؟؟

بعد قرابة ربع ساعة عاد بصينية القهوة ومعها حلويات تم مراعاة الجمال في شكلها فضلاً عن الروعة في مذاقها، ساحت في فمي بغرام لذيذ وسحت في الاستجابة لطلبه مظهراً أني قد أذعنت إليه وأن خطته قد نجحت معي، وشربنا القهوة كأصدقاء.

وفي اليوم الثاني مررت بإجراءات سهلة ودخلت بسهولة ويسر رغم أن الإجراءات الأمنية التي تصل إلى درجة الهوس لم تتغير، بالغوا في الاعتذار، وجدته باستقبالي، حفاوة بالغة وضيافة بالغ في كرمها، مأكولات ومشروبات ملأت المائدة من كل لون وذوق، جلست بمرح وحدثتهم بتفاصيل ما رأيت في جامعة بيرزيت المشاهد التي رأيتها والمناكفات وبدل الثلاثة أسماء من كل طرف جعلتها خمسة، كانت ضيافتهم كريمة وكانت بالمقابل معلوماتي كريمة، وبررت ذلك لنفسي أنها معلومات الكل يعرفها وسهلة المنال لكل متصفح للفيس بوك.

قبل نهاية اللّقاء قال لي صديقي: لنعد رؤية المشهد.

فتح شاشة وإذا بي أشرح وأُفصّل عن بيرزيت لضابط المخابرات الذي يصغي بشغف.

أسقط في يدي، بلعت ريقي، انتبه لي وقال:

. معذرة... فمن عاداتنا التوثيق.

صعقني بهذه الكلمة، سهلت الأمر على نفسي، قلت غداً أُسافر ولن يروا وجهي أبداً، لن أعود إلى هذه البلاد قطعياً، قبل أن يودعني كانت الصعقة

الثانية:

. نتمنّى عليك غداً معلومة تساعدنا في تحديد الرجل الأقوى في الكتلة، والأقوى في الشبيبة.

سألت مستغرباً:

. غداً موعدي مع السفر!!

. بعد غد إن شاء الله تسافر.

. أتأخر عن الجامعة.

. لن تتأخر، ولو تأخرت هناك من أصدقائنا من نوعز له بمساعدتك، فما دمت معنا، لا تقلق.

عدت من عندهم وكأني قد شربت برميلاً من الخمر، لا أدري ما يُفعل بي، يستدرجونني إلى مستنقعهم خطوة خطوة، أهم بالتراجع فيقف توثيقهم لي بالصوت والصورة شاخصاً، كم كنت غبياً وأنا أشرح لهم، وما العمل وقد وقع الفأس بالرأس، قلت في نفسي: لاحق العيّار لباب الدار، غداً أحسم أمري معهم.

ومرة ثانية عدت محملاً بالمعلومات عن الشخصية الأبرز في الكتلة والأبرز في الشبيبة، وبالطبع وثّقوا ما قلته، ابتهج وتهللت أساريره وأنا أدعو من أعماقي بالسفر غداً وأعقد نيتي على ألا أعود إلى هذه البلاد، سحب من جاروره رزمة من الدولارات، مدّها علي.

. هذه مكافأة متواضعة، لن نبخل على أصدقائنا.

رفضت وقلت:

. أنا لم أفعل شيئاً، فقط أُريد السّفر.

. أنت قدمت لنا خدمات هامة. ونحن نكافئ من يخدمنا. ومكافأتنا لا ترد صديقي، خذ هذه والآتي أعظم. وتقدّم، وضعها في جيب قميصي وهمس:

. تحلَّ بالشجاعة.

قلت على مضض:

. ماشي.

ورتبت الأمر كي أخدعهم كما خدعوني. هذا الغبي يقوم بدور الثعلب عليّ، وأنا كذلك حتى أتمكن من السفر، تبرعت بالخدمة حتى أنتزع منه السفر غداً، تظاهرت بالحماسة وقلت:

. أية خدمات في الأُردن أنا جاهز، أعرف كل الطلاب الفلسطينيين، انتماءاتهم السياسية وأدقّ التفاصيل،

بخبث قال: لا تنس كلامك مسجل صوت وصورة.

وبخبث قلت: سأثبت أني شجاع، لن أخشى شيئاً.

استأذن بأدب جمّ، عاد مع رجل مخابرات آخر يظهر أنه أكبر سناً ورتبة، قدمني له معرّفاً باسمي، وقدمه لي على أنه ميجر في المخابرات.

تحدّث الميجر بعمق وهدوء مصطنعين، أثنى علّي طويلاً وقال بنبرة حازمة قاطعة:

. درسنا شخصيتك جيداً، اخترناك من بين أربعين شخصية مرشحة لهذه المهمة، مبروك لهذا النجاح في الاختبار.

رددت بصوت خافت وجل:

. الله يبارك فيك.

تابع:

. اخترناك لتكون عيناً لنا في جامعة بيرزيت.

كلمات وقعت على رأسي كالصاعقة، سألت:

. وماذا عن السفر غداً؟!

ببساطة ونذالة هتف الاثنان معاً:

. انْسَ موضوع السفر، ستأخذ شهادتك الجامعية من جامعة بيرزيت، ستجمع بين الطالب والموظف ، أنت طالب وفي الوقت نفسه موظف لدينا براتب خيالي ولا في الأحلام.

دبّ الغضب في صدري فصرخت بهم:

. هذا عمل خبيث، أنتم ضحكتم عليّ. أنا كنت واضحاً معكم، هدفي السفر ووعدتموني بذلك.

. عمل خبيث؟

قهقه الاثنان معاً:

أنت تحسبنا جمعية خيرية؟ تريد أن تلعب مع المخابرات، حبيبي عندكم مثل يقول : "اللّي بدو يلعب مع البس بتحمل خراميشه."

وفتح صديقي! على الفيلم الوثائقي، خدماتي الجليلّة لهم بالصوت والصورة وهتف الميجر:

. كيف لو وضعنا هذا على اليوتيوب؟ مائة دولار ترويج يصل لكل العالم.

غرقت في عرقي، فقدت أملي في السفر.

قلت: لا بأس، أُكمل دراستي في بير زيت وأول فرصة، سأسافر بلا عودة، ولن أتثعلب على الثعالب مرة أُخرى.

وهكذا اصبح جاسوسا (٢)

تمنى قلمي في أُسبوعه التاسع عشر أن يحمل في أحشائه مداداً بعدة ألوان، كانت قصة هذا الأُسبوع عن صفقة بالألوان... فماذا تراه يكتب لنا وهو لا يملك سوى لون واحد :

ألقى عليه طوق النجاة من اعتقاله الإداري الخامس، تركه يفكر ويقلبه من جميع جوانبه كما يحلو له، إما أن تذهب بقدميك إلى المعتقل فيغيبك في أحشائه سنتين أو ثلاثاً، تزيد أو تقل لا أحد يعلم، أو أن توافق على هذا العرض المُغري.. هدنة، لا تمس بأمننا وبالمقابل نضمن أمنك ولا تتعرض للاعتقال مطلقاً، تبقى بين الطرفين مناقشات سياسية مفتوحة واتصالات بطرق آمنة. مستعدون لتقديم مساعدات، السماح لك بالسفر، وقف أي اعتداء عليك من قبل أجهزة السلطة، بإمكانك الترقي في تنظيمك والوصول إلى درجة قيادية عالية ونستطيع المساعدة في هذا الأمر.

ضربت هذه الأفكار رأسه من كل جانب وكانت تصارع فكرة اعتقاله للمرة الخامسة، هذا الاعتقال الإداري اللئيم الذي بمثابة حرب نفسية ضروس على الأسير وأهله، يتم تمديده المرة تلو الأُخرى، كلما انقضت ستة أشهر

واقتلعت نصالها من صدره صعقوه بستة أُخرى وهكذا، كان محمود جابر يستذكر الاعتقالات السابقة التي أكلت من عمره ما حلا لها، وضربت روحه وجسده ضربات تركت آثاراً قاسية على صحته الجسمية والنفسية... أحد عشر عاماً مجموع حبساته الأربع وجاءته هذه الخامسة، وراح يفكر بعمق:

هل هذه الصفقة عمالة لهم؟ هم يعرضون هذا على شخصية يعرفون بأنها شخصية قيادية ذات وزن كبير، لا يمكن أن يحاولوا تجنيدي معهم، لكنهم يعرضون مصلحة لي، أنا في الأصل كنت أفكر بترك كل ما من شأنه أن يعيدني إلى السجن، وهذا من الحكمة، أمنياً أصلاً، من الخطأ العمل في المحظورات والمخاطرة الأمنية لأني شخصية محروقة عندهم، لم لا أحقق مصلحتي والمصلحة العامة تقتضي بأن أقوم بدوري دون أي اعتقالات، من السهل أن لا أمس أمنهم فعملي سيكون فكرياً، وإدارياً، وثقافياً واجتماعياً، بالمقابل أبتعد عن السجون وأُسلم الراية للشباب ، على الأقل للذين لم تحرق أوراقهم بعد.

سأحقق بذلك فوائد كثيرة، ولن يأخذوا مني شيئاً، لن أمكنهم من أية معلومة قد يستفيدون منها، هم لم يطلبوا مني هذه الخدمة، حسناً أنتفع منهم ولا أنفعهم، ولكن اسمها صفقة؟! والصفقة مع المخابرات شبهة كبيرة، إنك تلعب بالنار يا محمود، إياك أن تحترق بنارهم، المسألة ليست مزحة، إنك تخاطر بتاريخك المشرق ومستقبلك المشرق كالفراشة التي تهوي بالنار، لكن الاعتقال نار ما بعدها نار، تزحزحت الحبسة الأخيرة بشق الأنفس ودمرت حياتي، علاقتي مع أبنائي، خسرت خسائر لا تُعَدُّ ولا تُحصَى، بصراحة: السجن جحيم ومقت وقهر ودمار شامل. لماذا لا أختار

أخفّ الضررين وفي حالة الأمر لصالحهم أتراجع عن الاتفاق فوراً، لم أمكنهم من نفسي ولن أساعدهم في تحقيق أي هدف من أهدافهم، قالوا إنهم ليسوا بحاجة إلى أية معلومات مني ولا أي شيء آخر، إذاً ماذا يريدون؟ فقط أن يضمنوا حيادي وألا أمسّ أمنهم؟ يريدون زحزحتي عن أي تفكير بعمل عسكري أو دعم أي توجه بهذا الخصوص، وأنا بالفعل أرى أنه من الحكمة ألا أكون بهذه الدائرة، أضواؤهم مسلطة عليّ بقوة، عملي بهذه الأمور أصبح ضرراً محضاً لي، ولكل من يتواصل معي، بالفعل عليّ التحول إلى الجانب السياسي للتنظيم والعمل الإعلامي، وأنا أُجيد هذا أكثر بكثير ممن يتصدرون المشهد، أما آن لي أن أفرّغ جهدي في هذا المجال وأن أترجل ولو لثلاث سنوات كاستراحة مجاهد وألتقط فيها أنفاسي؟! أفترض أنها اعتقال إداري يا أخي، إن لأبنائك وبيتك عليك حقاً .

وافق محمود على الصفقة وشرّط عليهم شرطاً، من حقه أن ينهي هذا الاتفاق في الوقت الذي يريد خاصة إذا لمس تراجعاً في التزامات الطرف الثاني.

شهد مباركة الصفقة عدد منهم، وكان على رأس الحضور ضابط عرّف نفسه أنه برتبه كولونيل، وتم إلغاء قرار الاعتقال الإداري وأُفرج عنه في اليوم الثاني للاعتقال، قطعت هذه الصفقة الطريق إلى السجن واعتقال إداري مرير لا يدري محمود متى ينتهي.

قبل أن يطلق ساقيه للريح وفي مكتب ضابط المنطقة الذي أقنعه بالصفقة قدّم له جهازاً خلوياً من النوع القديم عليه شريحة جوال.

هذا جهاز قديم صديقي لا يليق بمقامك، لكن لضمان اتصال آمن بيننا فهذه الأجهزة أفضل.

تردد محمود قليلاً في أخذه، قال في نفسه.. لماذا يتوقف الأمر عند هذا الجهاز؟! بالفعل فإن الاتصال بطريقة آمنة أفضل، ثم إن الأصدقاء يرون في استخدامي لهذا الجهاز حذراً أمنيّاً محموداً.

أخذ الجهاز وانطلق تاركاً سجن عوفر خلف ظهره، كأنه يودع مرحلة ويدخل مرحلة جديدة، لا سجن بعد اليوم، حسناً صفقة سأكون أنا الرابح فيها بإذن الله، لن يكونوا أذكى مني، لن أمكنهم من أي شيء.

وكان يتلفت حوله قابضاً على الخلوي الغبي، لقد أخطأت يا محمود ما كان لك أن تأخذ هذا الجهاز من خلاله سيراقبون أنفاسك، ما أدراك أن شكله الخارجي قديم ولكن زرعوا في داخله ما يمكنهم من التلصّص عليك، لقد زرعوا في جيبك جاسوساً لهم، حسناً فلتحذر إذاً، وتستخدمه أنت في الرسائل التي تريد أن توصلها لهم، تحرك الآن بطريقة جديدة، تحدث وكأنهم جالسون معك، يجب أن توصل إليهم ما يطمئنهم منك، عليك أن تغير خطابك وتظهر حسن نواياك بشكل ملموس.

صار محمود جابر يتغيّر، يحذر من أية أفكار قد يفهم منها أنها تحريضية، ولا يقيس الأمر على مقاس الذين يجالسهم، ولكن يفترض أن جماعة الصفقة يسمعون كل حرف يتحرك به لسانه، وراح يتحول تدريجياً من الصقور إلى الحمائم، ويحاول جاهداً أن يقنع نفسه بأن هذه في قناعاته ، وأنه بحكم السن وتراكم الخبرات والنّضج السياسي ودرجة الحكمة العالية

التي يتمتع بها والاعتدال والتوسط والبعد عن أي تطرف أو غلّو ، والآن دوره في عالم الفكرة وصياغة الرأي العام وصناعة المجتمع أهمّ بكثير من ذاك الدور الذي يستطيعه أي عنصر من العناصر.

وبالمقابل كانت جماعة الصفقة تراقب التحولات على شخصية محمود جابر وتعدها مشجعة تفتح شهيتهم إلى أن يخطوا معه خطوات إلى الأمام.

رتبوا الاجتماع في أحد المطاعم الراقية على شاطئ تل أبيب تفاجأ محمود بحجم الترتيبات وكرم الضيافة، وكانت شخصيات يبدو أنها شخصيات وازنه من الحجم الكبير، عرفوا على أنفسهم بأنهم أكاديميون من جامعة تل أبيب، قبل الوصول إلى هذا المطعم صحبوه في جولة لأحياء راقية في تل أبيب، الشوارع الراقية ذات الجمال العالي، الأرصفة، الزراعة الشجرية وارفة الظلال، الشوارع تحكي قصة شعب راقٍ، الحدائق العامة كأنها جنّة على الأرض، السير والنّظام، كيف يقطع المشاة عندهم على الخطوط البيضاء وفق الإشارة الضوئية بسلامة عجيبة، ليس كما على دوار المنارة في رام الله، ينتشرون كالإبل الشاردة.

وكان النقاش هادئاً جميلاً ، المتحدث ينتظر فرصته دون عناء، ما قلّ ودلّ ولا داعي للإسهاب الممل، والتقط محمود موضوعية فريدة في تناول الموضوعات المطروحة وطريقة تفكير عملية، وتذكر جلسات النقاش في غرف السجن، كانوا يتداولون الأفكار كلعبة شدّ الحبل وكثيراً ما ينقطع هذا الحبل، عندنا الكلّ يتكلم وواحد يستمع، بينما هنا الكل يستمع وواحد فقط يتكلم ، ويدرك محمود الفارق في المكان، ما بين مطعم على هذا الشاطئ الجميل والسجن

والغرفة الكئيبة، فرق شاسع في أجواء الرّاحة ورغد العيش والحرية الواسعة وبين أجواء الضغط النفسي والقهر والضيق المادي والمعنوي، ودقت أبواب قلبه فكرة ، هذه الحياة الرغيدة والمستوى الحضاري العالي بما كسبت أيديهم، وأحوالنا التي يرثى لها أيضاً بما كسبت أيدينا، لابدّ من وضع اليد على الجرح، هم انتصروا علينا لتقدمهم وتأخرنا، عد يا محمود واشتغل في أسباب التقدم والرّقي الحضاري حتى إذا تقدمنا انتصرنا عليهم.

وهكذا قاده الانبهار إلى أن ينسى كيف نحقق التقدم والرّقي الحضاري ونحن نرزخ تحت الاحتلال؟! صخرة ربضت على صدورنا وكبلونا سياسياً باتفاق أوسلو واقتصادياً باتفاق باريس.." وصحيح لا تأكل ومُقسّم لا تأكل وكل حتى تشبع."

في نهاية هذه الجلسة التي عصفوا بها في عالم السياسة والثقافة وأُفق صناعة السلام بين الشعبين والتعايش السّلمي، وكيف نزرع الأمل كي لا نحصد الشّوك وكي نضمن الأمن والأمان لأبناء وأحفاد الشعبين، على هامش هذا اللّقاء وفي رواق الخروج وضع الكولونيل في جيبي خلويّاً قائلاً: إن هذه هدية متواضعة أرجو أن لا تردها، بالطبع قبلها محمود، وتابع ضابط الصفقة، هذا جهاز ذكي خاص فيه شريحة جوال ولكن من خلال كود تدخله على تطبيق التقويم في الخلوي تتحول إلى شريحة سيليكوم هذا لضمان أمان الاتصال، إذا أردت العودة فكبسة على حرف C ، وطلب منه إبقاء تطبيق الكاميرا ولاقط الصوت فعّالَيْن.

عاد محمود من هذه الرحلة منشرح الصدر، شعر بأنه لم يعطهم أية معلومة قد تضر، كانت نقاشات عامة عرّفهم فيها بوجهة نظره المعتدلة،

وانتقد الأفكار المتطرفة في نظرهم، وجد نفسه يرقص على أنغامهم، ويفصّل نفسه على المقاس الذي يريدون.فاجأه اتصال من ضابط من المنطقة، وكأنه يعتذر منه ويأخذ منه الإذن.. بلّغه بنية المخابرات القيام بحملة اعتقالات تشمل بعض الرموز خلال الأسبوع المُقبل، وسمّى له بعض الأسماء، قال إنهم مضطرون لحفظ الأمن أن يعتقلوا من أتتهم بيانات قاطعة بأنهم يشكلون بنشاطهم خطراً على أمن المنطقة.

أسقط محمود في يده، لماذا يخبرونه بهذه الأخبار؟! ألهذه الدّرجة وصلت الثّقة بينهم؟ أم إنهم يريدون أن يعرفوا ردة فعله، هل يغضب؟! يحتج، يدافع، يوافق!! ينسجم مع هذه الاعتقالات؟ أين وصلت به حالة التفهّم للأمن الإسرائيلي ومتطلباته من اعتقالات ومطاردات وملاحقات!؟

وتكثفت الاتصالات على الهاتف الجديد، يجده فجأة وقد تحوّل عندما يتصلون به من جوال إلى سيلكوم أحياناً لا يدري لماذا اتصلوا؟ مجرد دردشة، أسئلة تطمينات على الحال والصحة، وكأنهم يريدون أن يذيبوا الجليد ويقتلعونه من جذوره العميقة، أن تصبح العلاقة طبيعية وكأنها بين أصدقاء، وأن يمحو التاريخ العدائي كله.

بلّغه ضابط إيقاع الصفقة بأنه بإمكانه أن يسافر وإلى أي بلد يريد، وله أن يتواصل بمن يحب من قيادات التنظيم في خارج البلد، وجيدٌ إن أحب أن يجس نبضهم، ويعرف ماذا يريدون في هذه المرحلة.

قال محمود في نفسه.. فرصة عظيمة، أوصل لهم الانطباع الذي تريده قيادتنا، وفرصة أن أرى العالم الخارجي، منذ عشرين سنة لم يسافر

محمود، أتته هذه الفرصة على طبق من ذهب، سبقته أشواقه وثار الحرمان المدفون في أعماقه وهو يتخيّل نفسه يقطع جسر الأردن، لا يقف في طريقه الشباك اللّعين الذي كان يعيده كلما حنّ للسفر، لن يعيده أحد لا من غربي النهر ولا من شرقيّه.

قبل سفره بيوم طلبه ضابط الصفقة، دردشة عامة على فنجان قهوة وحلويات جميلة الشكل لذيذة الطعم، نهاية اللّقاء وضع في جيبه رزمة من الدولارات، سأل باستغراب وتمنّع:

. ما هذا؟ لم نتفق على شيء من هذا، أنا لا أعمل عندكم. ضحك بطريقة تبدو أنها بريئة.

.بكل تأكيد، ولكنّ السفر تكاليفه باهظة، أحببنا أن نساهم مساهمة متواضعة، الأمر إليك بإمكانك رفضها ولكن لن يكون الأمر مريحاً للكولونيل، هو يثق بك ثقة عمياء، لا تخيب رجاءه.

تجاهل محمود وابتلع الطعم، في طريق عودته عدّ هذه الرزمة فإذا بها ثلاثة آلاف دولار، ابتسم لها قلبه وهتف: فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ... لن يجنوا مني أية فائدة بإذن الله.

وشدّ رحاله خارج البلاد، يمّم وجهه شطر عمان، تنفس هواء آخر غير الذي كان يربض في صدره أيام السجون، ذاك كان هواء ثقيلاً، أمّا هواء هذا الفضاء الواسع فإنه هواء خفيف يشرح الصدر وينعش القلب، وكان يمر ببصره يميناً وشمالاً ليملأ روحه من هذا العالم الواسع، شعر بأن شخصيته

تتوسع وتتمدد، فعلاً الحرمان من الحرية ضيق في الأُفق وتقزيم للرّوح.

وأخذ يتنقل بين الأحياء في عمان، من حيّ لآخر يبحث عن أقاربه الذين كاد ينساهم من جفوة الفراق والحرمان الطويل، رافقته في هذه الرحلة زوجته التي عمل ما بوسعه ليعوضها ما تحملته فترة الابتلاء الطويلة، كان يتصرف كمن دخل مرحلة جديدة في حياته وأن أيام المحنة قد رمى عليها طلاقاً بالثلاث فلن تعود أبداً، استعد لها أن يلبي كل رغباتها وأن يدور معها على كل أقاربها في الأردن.

اعتاد محمود أن يفضفض لشريكة حياته ولا يدع شيئاً مما يتلجلج في الصدر إلا أفرغه بين يديها، وكانت امرأته تجيد الاستماع وتجيد الانسجام مع مشاعر زوجها، تقف معه بنفسٍ عالٍ محبٍ للوطن والدين والانحياز للجانب العام، لأول مرة يجد محمود نفسه يخفي عن زوجته موضوعاً فكيف إذا كان بهذا الحجم، صفقة، ومع من؟ كيف سيكون ردها لو أخبرها! لماذا يخشى إخبارها؟ ولمع في قلبه حديث شريف: "الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس". أنت يا محمود تكره أن تطلع عليه شريكتك بكل مشاعرك، كيف لو اطّلع عليه الناس؟ إنك تغرق بالإثم يا محمود، كلما وردت في خلده كلمة صفقة تخيل حروفها بخط أسود مع ظلال سوداء حالكة، نغصت هذه الكلمة عليه رحلته الجميلة وشكلت له شوكة في حلقه.

تعمد أن يلتقي بقيادات من التنظيم وكان ترحيبهم به كبيراً، وجد روحه تلتحم مع أرواحهم بثوا له أشواقهم وحنينهم للوطن، وبث لهم المعاناة الطويلة التي عاشها في السجون، لم يحاول أن يلتقط منهم شيئاً، بقي في

حسابه أنه بعد لقائه بعد العودة مع جماعة الصفقة سيسألونه عن رأي القيادة في كذا وكذا، إلخ، آثر الاختصار خشية السقوط، وكان لابد من العمرة طالما أنه تمكن من السفر. حلّق عالياً وحلّقت معه زوجته في عالم طالما اشتاق إليه، كانا يريان الناس يتبعون العمرة بالعمرة ويتحسران على حالهما، وكانت زوجته بين الحين والآخر تقول له: في عينيك شيء لم أعتد على رؤيته؟ هل الخوف من أن تحرم من السفر من جديد؟ وكان في الحقيقة هذا الشيء هو الذي أخفاه عنها، الصفقة، أوشك أن يصارحها بالأمر بنية حسم الأمر والتراجع عن هذه الصفقة، عكرت عليه الصفقة أجواءه الروحية وهو يطوف حول الكعبة لأول مرة، أصبحت كضرس العقل عندما تنفجر أوجاعه.

فقد شهيته لكل شيء، تنامى شعوره بأن هذه الصفقة ما هي إلا طوق حديديٌ وضع في رقبته، وما زاد الطين بلّه أنهم لم يتركوه في فسحته لعله ينسى قليلاً، كانوا يتصلون بمعدل كل يوم مرتين، تتحول الشريحة ويفتح الخط الآمن، يتكلمون، ويفتحون المكالمة، كيف أخبار القائد العظيم؟ شو عامل؟

سئم هذه الاتصالات وأصبحت قيداً أحاط به من كل جانب وكأنه ما خرج إلا لأهداف مخفية لهم، وصل إلى قناعة بأن الحرية لا تمنح من الأعداء وهي ليست الحركة والتنقل والسفر، قد تكون حراً وأنت في السجن أكثر من حريتك خارجه، أية حرية هذه وهي تفرض عليك التعايش مع الإثم الذي يحيك في صدرك؟! شعر بأنه أكثر بكثير من هذه الحياكة، أنه نصل يجرحك ويدمي ويقتل قلبك، لا مفر إذا من فضّ هذه الصفقة، قالت وهما يتناولان العشاء في مطعم جميل في المدينة:

. مالك حبيبي أنت لست على عوائدك، أنت الآن في مدينة رسول الله، تذكر عندما كنا نغامر في رمضان ونصل إلى الأقصى تهريباً من خلف الجدار؟ كنا نخاطر بأرواحنا ومع هذا كنا سعداء! نحن اليوم نمارس حريتنا، نتجول في مدينة المصطفى صلى الله عليه وسلم.

. نمارس حريتنا؟! نعم إنه شعور عظيم، قال في نفسه: الحرمة تظن زوجها يمارس حريته، اللي بعرف بعرف واللي ما بعرف بقول كف عدس.

. أنت يا محمود لست على عادتك، هنا يجد الناس أرواحهم أنا أراك تفقد روحك.

امتقع وجهه ورد كاذباً:

. قد يكون الأمر أني لم أعتد الحرية.

في المدينة المنورة عقد عزمه على أن يحل الصفقة، وأقسم أن السجون وعذابها أهون من هذه العذابات التي ضربته بنصالها في أعماقه، أغلق الجهاز، لم تطق نفسه أن يسمع أصواتهم، عاف نفسه وأخذ يحصي أنفاسه المتبقية للعودة إلى أرض الوطن وفض هذه الصفقة.

اتصلوا فور وصوله رام الله، حددوا موعداً في أحد المطاعم الفاخرة في رام الله هذه المرة، يا لجرأتهم إنهم يستبيحون كل تفاصيلنا، يسخّفون بأمننا إن كان لنا أمن، بالفعل جاءني على طاولتي رجل أجنبي أشقر، قصير، ناعم شعر الرأس وكأنه فتاة جميلة لولا بعض ملامح الرجولة، وضع حاسوب لاب توب في حقيبة راقية وجلس، لم يسأل، لم يتكلم، فقط كان يبتسم، شرب القهوة،

واستأذن، فقط قال لي كلمة صغيرة:

. هذا هدية لك من الكولونيل، سلّم وانصرف.

هذه آخرتها يا محمود... هدايا تصلك وسط رام الله! الشكل أجنبي والمضمون مخابرات إسرائيلية! لن يكونوا أذكى مني، سأصفعهم بفض الصفقة عند أول لقاء وليكن ما يكون.

كانت نتيجة فحص الحاسوب المحمول اللاب توب الذي أهدوه إياه فظيعة، زرعوا فيه أشياء كثيرة تغربل حياة حامله وتجعله مكشوفاً لهم حتى النخاع، ألقاه في واد سحيق وتخلص منه.

وكان اللّقاء الأخير، حضر الكولونيل وأعدّوا أنفسهم لعشاء عمل، كان ذلك في أحد مكاتب المخابرات في عوفر، الوقت بعد مغادرة النهار وضيافة اللّيل مباشرة، الطقس الجميل والعصافير تلفظ آخر أصواتها تستعد لليلها الطويل.

بعد المقدمات والمجاملات، تقدم الكولونيل خطوة وباح مستبشراً:

. لابدّ أن نكثف تعاوننا لما فيه مصلحة شعبينا، نريد لأصحاب الحكمة وخبرة الحياة بكل تعقيداتها الشائكة أن يتقدموا الصفوف، نتمنى من حضرتك أن تتقدم الصفوف وأن يكون لك الدور المطلوب، التعايش السلمي وحقن الدماء ورؤية المستقبل المشرق للشعبين.

كلام جميل ومسموم في الوقت نفسه، والآن عرفت أهدافكم: تريدون صناعة قيادي فلسطيني على مقاسكم، رسمت خطواتي للتنصل من هذه الصفقة

اللعينة بشكل جيد.

. وهل أنتم مستعدون لدفع المطلوب منكم؟

. بكل تأكيد، نحن على طاولة المفاوضات نتنازل.

. مستعدون للاعتراف بحق اللاجئين في عودتهم إلى ديارهم؟

ظهر الامتعاض على وجه الكولونيل، اسود وجهه وتمعّر هو والطاقم الذي يرقب الحديث وقد أعدّوا أنفسهم لصيد ثمين فإذا به يخيب آمالهم :

. كل شيء بالتدريج يجد حلاً مناسباً له.

صفعة ثانية:

. والقدس مستعدون لأن تكون عاصمة فلسطين؟ وقبل أن يسمع الجواب تابع محمود:

. والمياه والحدود والاستقلال الحقيقي؟؟ كل شيء بعد أوسلو أفرغتموه من محتواه، سيطرتم على كل شيء ولم تدعوا للفلسطينيين سوى معازل بشرية منزوعة الصلاحية.

سأل الكولونيل بنبرة صارمة:

. وكيف ترى الحل؟

. أن تعيدوا للناس حقوقها، هذا أولاً أما على صعيدي الخاص فقد قررت إنهاء هذه الصفقة، أنتم وعدتم أن بإمكاني إنهاءها وقتما أريد:

ردَّ متنمراً:

. بعد أن أخذت ما تريد، سافرت وقابلت قياداتك، أنت يا محمود تخدعنا، أتعتقد ذلك؟

قلت بحدة أقوى:

. بين البائع والمشتري يفتح الله ، ما كان أوله شرط آخره رضا.

ردّ بعد أن كشّر عن أنيابه:

. اسمع يا شاطر، اسمع يا فهيم زمانك، نحن جماعة نحب التوثيق، كل شيء عندنا موثقب صوتاً وصورة، لقاءاتنا ، وهدايانا، وكلامنا وكلامك والأخضر الدولار، أتعتقد أن هناك من يأخذ دون مقابل؟!

. أعيد لكم ما أخذته، ويا دار ما دخلك شر.

. أنت واهم، أنت أمام خيارين لا ثالث لهما، أن نفضحك على الملأ بالصوت والصورة، وبهذا أنت بنفسك تضر بصورة قيادة تنظيمك وصورتك الشخصية تمسح فيها الأرض، بالطبع أنت بذلك تضرب نفسك بنفسك، والخيار الآخر، أن تبقى علاقتنا كما هي ولا نريد أن نطورها بناءً على رغبتك، أن لا تمسّ بأمننا ولا نمسّ بأمنك ونعفيك من السجون والاعتقال الإداري وويلاته، إما أن تحرق الصورة بيدك أو أن تحفظ نفسك؟

بعد أن هبّ واقفاً وهم بالخروج قال كبيرهم:

. لا داعي لإعطاء جواب فوري، دعوه يفكر بالخروج على راحته، واعلم أن: الخروج من الحمام مش مثل دخوله.

قبل الخاتمة..

وكانت القصة العشرون تدور حول موعد الإفراج عني، وأنّى لي الافراج عن ما كتبت من هذه الغياهب ، كلما اقترب تشتت ذهني وصرت للعالم الخارجي أقرب ، ساحت مشاعري وذهبت بعيداً وتوقف القلم وأصبح همي كيف أُخْرِجُ ما كتبت، الخطوة الأخيرة في التحدي، الكتابة النصف الأول وإخراج ما تكتب النصف الآخر ، كانت المحاولة الأُولى بعد احتفاظي بنسخة احتياطية أن أخرجها مع أحد المفرج عنهم مع مجموعة دفاتره، ولكنهم ألقوا القبض عليها وصادروا حصيلته لحبسة قوامها أربع سنوات ، وكانت المحاولة الثانية عندما أخذ أحد الأسرى ينسخها على ورق شفاف لكبسلته كما هي كبسولات الدواء بالطريقة المعروفة لدى الأسرى، وعندما أصبح في نهاية العمل لأسبوعين من الجد والمثابرة داهم ضابط أمن السجن مع مجموعة من السجانين الغرفة ليفتشوا فتقع في أيديهم ، صادروها دون أن يعبأوا بأي تبرير ، وجدت قلمي وما يصدر عنه مطارداً مطاردة ساخنة وتحت الرقابة على مدار الأربع وعشرين ساعة .

لم يعد أمامي سوى إخراجها معي عند الإفراج عني، نسخ الأسرى نُسَخَاً لتعميمها على السجون، ثم أخذت نسخة فخرجت معي، ويسر الله أمرها

بطريقة لا أستطيع الإفصاح عنها في الوقت الراهن، ها هي ذي أضعها بين أيديكم شاكراً لكم إيلاءها اهتمامكم، ومتأملاً أن تحظى بعبرة بليغة بعد ما زلزلت الوعي فينا مع سني الاحتلال الطويلة ، هو يصر على ذات الاساليب وكثير ممن وقع في شباكهم يصر على ذات الاخطاء .

الفهرس

ثقة تنزل عن الجبل !!	٧
عصفور على الفيس بوك	١٩
تحقيق في فيلا	٢٧
شبحة الموزة !!	٤٣
صديق عمّي أعماني !!	٥٥
شُبّاك رقم (١٠)	٥٩
أنا ضيف عندكم؟!	٦٩
من تحت الطاولة	٧٩
أبو النور !!؟؟	٨٥
وقعت عن الحمار	٩٥
عصافير على الحدّ الفاصل	١٠١
آذان صاغية	١٠٩
غلطة الشاطر	١١٣
آنَ لهذا القلبِ أنْ يستريح	١١٩
ستة خراف !!	١٢٧
ليعلموا أن الله حقّ، جماعة ال VIP	١٣١
سيماهم في وجوههم	١٣٧
هكذا اصبح جاسوسا (١)	١٤٣
هكذا اصبح جاسوسا (٢)	١٥٥
قبل الخاتمة..	١٦٩

وهكذا أصبحتُ
جاسوساً !!

وليد الهودلي